جائزة ورشة المصرية اللبنانية للرواية 2017

أحمد صابر

حياة رجل ميت

رواية

الدار المصرية اللبنانية

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

جائزة ورشة المصرية اللبنانية للرواية 2017

حياة رجل ميت

رواية

عبد الحي، أحمد صابر .
حياة رجل ميت: رواية / أحمد صابر عبد الحي .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.
176ص؛ 20سم.
تدمك: 1 - 166 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
ب- العنوان. 813
رقم الإيداع: 3421 /2018

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: جماد أول 1439 هـ - يناير 2018م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

جائزة ورشة المصرية اللبنانية للرواية 2017

أحمد صابر

حياة رجل ميت

رواية

الدار المصرية اللبنانية

كلمة الدار

انطلاقا من قناعتنا بأن الناشر صاحب رسالة، ويشتغل بقضايا وطنه، وشريك أساسي في عملية التنوير المجتمعي، فقد تبنينا مسئولية إقامة ورش كتابة للشباب مجانية، أشرف على الورشة الأولى للقصة القصيرة الكاتب الراحل مكاوي سعيد في أكتوبر 2016، وصدر كتاب مجمع لأفضل قصص المشاركين تحت عنوان «الطريق إلى النبع»، وفي مارس 2017 أقمنا الورشة الثانية، وكانت للرواية تحت إشراف الكاتب عمرو العادلي، وقد تم في نهاية الورشة اختيار رواية «حياة رجل ميت» للكاتب أحمد صابر للفوز بجائزة ورشة كتابة «المصرية اللبنانية» ضمن عشرة مشاركين، ونقوم بنشر الرواية تأكيدًا لدعمنا المستمر للشباب.

إن النجاح الباهر للورشة يجعلنا نفكر جديًّا في استمرار هذه التجربة الرائدة، مستلهمين ما قد سبق أن حققناه في تجربة سابقة من دروس مستفادة.

هذه هي قناعتنا.. وهذا هو إنجازنا.

كلمة المشرف

حقًا هي تجربة ممتعة، استفدتُ منها أكثر مما أفدت، وجدتُ نفسي مُحاطًا بعشرة من المتدربين على الكتابة الإبداعية من أصل 168 متسابقًا، كلهم من الشباب، وُضِعتُ في خانة المسئولية المباشرة عنهم، وأصبحتْ مهمتي الأساسية هي فض الاشتباكات والالتباسات في تصوراتهم عن الأدب. قناعات جاهزة ومشوشة أحيانًا، ناقشت رؤيتهم للعالم وللأدب، تحدثنا كثيرًا عن الإبداع، وتحاورنا حول المدارس الأدبية على اختلاف توجهاتها. سعدت بتكليفي مِن قِبل ناشري الدار المصرية اللبنانية، بتوجيه قدرات هؤلاء الشباب، وتذكرت عندما كنت في مثل عمرهم، أتمنى أن أقابل كاتبًا نشر كتابًا واحدًا، أو ناقدًا له مقال في جريدة أدبية، وشعرت بكمّ المجهود ومعنى الرسالة الملقاة على عاتق الدار. كان المشاركون على مستوى المسئولية، اجتهدوا وكتبوا، وتمت التصفية لقائمة قصيرة، ثم تصفية القائمة القصيرة، وفازت بها الرواية التي نُقدِّم لها الآن.

اجتهد أحمد فاجتهدنا معه، أنا والأستاذتان نورا ومنة رشاد، حتى خرج هذا المنتج الإبداعي الذي بين أيديكم الآن، رواية مهمة، آمل أن تحوز إعجاب القراء الكرام.

عمرو العادلي

إهداء

إلى أبي، الذي مازال يستيقظ في الرابعة فجرا، للذهاب لعمل شاق، رغم بلوغه الستين.

وإلى أمي، من تعاملني، رغم سنواتي الخمس والعشرين، كطفلها الصغير، وتتحملني، وتتحمل الحياة، وتتحمل آلام قدميها، بصبر عظيم. إلى أخواتي.

إلى أصدقائي، ومقاهي العاصمة وحواريها المظلمة. إلى الأحلام التي لن يطمسها قبح الواقع. إلى يناير بهزائمه الكبيرة وانتصاراته الصغيرة، وإلى ليالي نوفمبر في شارع محمد محمود.

إلى نجيب محفوظ، من جعلني، ولن يعرف أبدا، كاتبا.

إلى كل الكتب، التي اشتريتها بثمن بخس، من على الأرصفة.

وداعا وأبدا، إلى من رأيتها أولا في خيالي، ثم ذات يوم، لن أنسى، رأيتها كحقيقة، كأنها خرجت من خيالي، لتتجسد في الواقع، إلى جميلة الجميلات، من أمسكت يدي، ولم تتركها أبدا، وعبر طرق مظلمة وطويلة، مشيت معي، لتنتزعني من براثن اليأس، وتزيح عن مخيلتي، أحلام الموت، إلى فاطمة.

«الشـر ينتصر فـي أغلب المعـارك، والخيـر بعد انتصـاره، بقليل، يتحول لشر، كأن الإنسان خُلق للشر، والخير عكس طبيعته».

1

يأتي من بعيد كأنه صوت من زمن آخر، صوت السيدة أم كلثوم، يزاحم الأصوات البشرية الكريهة، صوت سعال رجل وصوت قرقرة الشيشة والملاعق وهي تخبط في قعر كوبايات الشاي والأحاديث الزائفة التي ترتدي رداء الأهمية بين رواد المقهى، أتمنى أن تصمت الأصوات، وننصت جميعا لصوت أم كلثوم، ليتعالى عن خفوته ويملك المكان ونغرق جميعا: الموظفون والطلبة والعمال وجميع من في المقهى، في دقائق من الصمت المقدس في حرم صوت عصي على الزمان، صوت لا تهزمه السنوات. أحاول تركيز ذهني على صوت الموسيقى، السمسار كأنه نسى وجودي، يجذب أنفاس الشيشة ويقلب في بعض الأوراق، أرتشف الشاي وأراقب الشارع، قال السمسار:

- مبارك عليك إن شاء الله.

قلت ساهما:

-بإذن الله.

- أريدك أن تعرف بعض الأشياء عن الشقة، ليرتاح ضميري!

للوهلة الأولى، توجست من كلامه، أرجو ألا يكون الأثاث سيئا أو تكون الشقة مرتعا للحشرات، قلت:

- تفضل.

- الشقة مقفولة منذ ثلاثين عاما، كل سنة يأتي رجل من العائلة، يفتح الأبواب والنوافذ لتتهوى من الأتربة، لكن لم يسكن أحد فيها.

- لماذا؟

- انتحر صاحبها فيها!

- كيف؟

- شنق نفسه، ويقول السكان إنهم يسمعون أصوات صراخ حتى يومنا هذا!

كدت أضحك في وجه الرجل، دائما ما يخشى الناس العفاريت والأموات، لا يوجد من يخشى الناس، وهم الأخطر، يختلقون القصص عن الموت، وبعد مرور الزمن يصدقونها كأنها واقع حقيقي، قلت مبتسما:

- لن تكون هناك مشكلة، أحب العفاريت.

ضحكت وضحك الرجل معي، ضحكة صفراء كشفت عن أسنانه المنسقة جيدا، وارتيابه للأمر برمته، قلت:

- الأثاث والشقة ما حالتهما، هذا هو المهم؟

- جيدة، يقول الأقارب إنها جيدة.

-أنت لم تدخلها؟

- سأدخلها معك الآن.

وضع السمسار المفتاح في الباب، يتمتم ببعض الآيات القرآنية، أسمعه بوضوح، ناهيك عن ارتعاشة يديه الواضحة، فتح باب الشقة، دفعه السمسار ونظر إليّ، تطلب عيناه أن أكون صاحب المبادرة وأدخل الشقة أولا. دخلت وهو ملتصق بي من الخلف، ظلام دامس ورائحة غريبة، وقفت بجانب السمسار، خفت قليلا، الأحزان المتوارية خلف صمت هذا البيت أشد رعبا من الأشباح والعفاريت، خوف غريزي داهمني، ومازال السمسار يتحسس الحائط المجاور لباب الشقة بحثا عن الكهرباء، أسمع أنفاسه الثقيلة المتوترة وضوء السلم لا يسعفنا على شيء، أضاء السمسار النور أخيرا، صالة واسعة، شبه فارغة، لا تحوي سوى طاولة كبيرة، وثلاثة مقاعد حولها، أريكة كبيرة أسفل النافذة الوحيدة في الصالة، وستارة بهت لونها من التراب والنسيان تغطي مدخل الشرفة، وسجادة واحدة كبيرة موضوعة فوقها الطاولة، وبقعة ظاهرة للعيان تغطي السجادة، وبجانب النافذة والأريكة في ركن يفصلهما عن الشرفة، تتراص عشر لوحات على الأرضية، لامرأة عارية، لفتت نظري لشدة جمالها، اقتربت من اللوحات، المرأة ذاتها في اللوحات الأربع، في مناظر مختلفة، لكن جميعها على ما يبدو

رسمت هنا. وخمس لوحات لأشخاص آخرين، بينهم امرأة، لا تشبه الفتاة في اللوحات العارية، وسمكة صفراء ضخمة، وهناك أيضا لوحة لرجل يرتدي بدلة سوداء مدججة بالنياشين الغريبة، لكنه بلا عينين، عيناه فجوتان سوداوان، لوحة مرعبة. رأيت خلفها، مجموعة أخرى من اللوحات، لوحات غير مكتملة. أحببت لوحات الفتاة العارية.

رأيت السمسار يقف قرب الباب، يتلفت حول نفسه، عندما رآني أنظر إليه قال:

- لنرى بقية الشقة، بسرعة أرجوك لدي مشاغل أخرى.

تتكون الشقة من غرفتين، ممر واحد يربطهما! بالحمام والمطبخ، دخلنا الغرفة الأولى، وأنا منذ رأيت اللوحات وقبلها بقليل منذ وضعت قدمي في الشقة، قررت استئجارها والمكوث فيها، رغم الروائح الغريبة. دخلنا غرفة النوم، غرفة كئيبة تتكون من سرير واحد عليه مرتبة ودولاب صغير، دولاب شخص واحد، ومرآة معلقة في الحائط بغرابة شديدة، يعلو التراب كل شيء في غرفة النوم، كدنا نموت مختنقين، شعرت بالتراب والوحدة. خرجنا من غرفة النوم، تجاه الغرفة الأخرى، يلازمني السمسار، أستطيع ملاحظة شدة خوفه، فتحنا الباب، مكتب وحيد يتوسط الغرفة، تتكوم عليه الأوراق والكتب، أرضيتها عارية ممتلئة مثل بقية الشقة بالتراب ورفوف خشب على الحوائط تحوي مكتبة منظمة بعناية فوق الخشب، لا توجد نافذة هنا، على عكس غرفة النوم، رفوف الكتب تكاد تلامس سقف الغرفة،

قـرأت بعض عناوين الكتب، وفي أحـد الأركان، يقف حامل لوحات بجانب أدوات الرسم وتتناثر على أرضية الغرفة، لوحات غير مكتملة أيضا، تستند على الحوائط، وددت في لحظتها قراءة كل الأوراق على المكتب، قد أعثر على رسالة انتحار الرجل أو خواطره قبل الموت.

خرجنـا من الغرفـة، رأينا الحمـام والمطبخ في جولة سـريعة، كل شيء حالته جيدة، سألني السمسار عن رأيي، قلت:

- لنمضِ العقد.

كل شيء هنا يعبر عن عزلة إنسان، عاش ومات قبل مولدي، هكذا شـعرت وأنـا أتجول في الشـقة، بالعزلة، شـقة يغطيها التـراب من كل جانـب، معبقة بالروائح الغريبة، شـعرت بإحسـاس أعرفه جيدا، مات هـذا الرجـل، مشـنوقا بخيبات الأمـل، قبـل أن يلفظ أنفاسـه الأخيرة منتحـرا، كالحبـل الـذي يلتف حول عنقـي الآن ولا يـراه أحد غيري، حبل خيبات الأمل.

عدنـا للمقهى، أخـرج الرجل العقود من حافظتـه الجلدية، العقود جاهزة للتوقيع، خمسة أشهر فقط لا غير، عرفت منه أن أخت صاحب الشـقة، وافقـت علـى عرضهـا للإيجـار تحت إلحـاح ابنهـا، وجدت توقيعهـا على العقد والشـهود أيضا، كل شـيء جاهـز، ينقص توقيعي فقط. وقعت العقود وقال السمسار:

- مبارك عليك، أتريد معرفة شيء آخر؟

- لماذا انتحر صاحب الشقة؟

نظر إليّ الرجل وقال:

- أيهمك معرفة سبب موته؟ زمانه أصبح ترابا.

قلت:

- الفضول يا معلم!

- أنا أتذكره قليلا، كنت صغيرا وقتها حوالي خمسة عشر عاما، كان شابا غريبا، لا يزوره أحد سوى فتاة، يقول الجميع إنه يحبها، مازالت تسكن في آخر الشارع حتى الآن، لكن سبب موته مجهول.

جذب أنفاس الشيشة ونظر للأرض، كأنه ينبش أعماق ذكرياته، ثم قال:

- لنترك هذا الحديث، مبارك عليك الشقة، وإذا أردت أي شيء هنا تجدني.

- شكرا يا معلم.

تحركت للرحيل، جذبني السمسار من يدي، ظننت أن هناك شيئا بخصوص صاحب الشقة وقد تذكره، عدت للجلوس على المقعد، جذب الرجل أنفاس الشيشة وقال:

- أنت تحتاج ثلاجة جديدة وربما «بوتاجاز»، عندي محل بيع أدوات مستعملة وحالتها جيدة، ما رأيك؟

قلت ممتعضا:

- شكرا يا معلم، طعامي دائما من المحلات، لا أحتاج ثلاجة أو «بوتاجاز».

2

وضعت حقيبة الملابس على الأرض، تداعب أنفي روائح الشقة الغريبة، فتحت النوافذ قبل كل شيء، بدأت موجة تنظيف، لأتخلص من التراب العالق في أركان الشقة، لسبب لا أعرفه، رفضت أن تساعدني سارة أو أي شخص، منذ وضعت قدمي في الشقة، وأخشى أن يرى الآخرون ما بداخلها، لوحات الفتاة الجميلة والأوراق على المكتب، خصوصا ما كتب عليه «مذكراتي»، أود الانتهاء سريعا لقراءة ما كتبه الرجل الميت ودوافعه للانتحار، وللنظر بتمعن أكثر في لوحاته.

انتهيت من التنظيف بعد عدة ساعات، اختفى التراب ولكن الرائحة مازالت موجودة، خصوصا قرب اللوحات، رأيت أولا، لوحات المناظر الطبيعية، جميعها لمناظر خضراء وأنهار، رديئة جدا، تشعر أن هذا الشخص لم ير عشبا في حياته أو ضفاف نهر، لوحات الفتاة، تنبض بالحياة، وضعت اللوحات الأربع متجاورة، وجلست أمامها على الأرض وأنا ممتلئ بالتراب، كأنني خرجت من مقبرة لتوي، فضلت رؤية اللوحات قبل الاستحمام. لم يغفل الرجل حتى

شعيرات صغيرة متناثرة في أسفل بطنها، النهدان الوقوران، في مكانهما بلا أي ترهل، ثابتان، البطن المسطح يفضي إلى الأسفل، في تناسق بديع، لنرى الشعيرات الصغيرة القليلة أسفل البطن، وفي لوحة ثانية، تقف الفتاة وتعطيه ظهرها، تستند على حافة النافذة، المفتوحة قليلا، تحني ظهرها، أردافها في التفاف يجعلك تبتلع ريقك، ترى الحياة تقفز من اللوحات: ابتسامة الفتاة ونظرات الدلال والعينان الواسعتان وشعرها الأسود القصير.

بعد الاستحمام، ذهبت لغرفة المكتب، أحضرت مقعدا وأخرجت الأوراق المدون عليها «مذكراتي أو سيرة ذاتية لرجل وحيد»، وشرعت في القراءة:

الفصل الأول

لا أعرف كيفية كتابة سيرة ذاتية، وليس لدي فكرة عما يكتبه شخص ما عن حياته ويضعه داخل كتاب، ليقرؤه آخرون، هل يتحدث عن حياته بصدق، أو يسرد مع الحقائق بعض الأكاذيب تجميلا لقصته، ويخفي أيضا أشياء عدة، قد يكرهه الناس بسببها.

أكتب ضمن هذه الأوراق، سيرة ذاتية لفترة من حياتي، سيرة قد لا يقرؤها أحد، ولا أعرف مصيرها بعد موتي، ربما تذهب للقمامة. لكنني أريد الكتابة عما حدث، حدث غريب، أكتب كل ما حدث هنا، دون إخفاء، أو زيادة من خيالي. خيالي فقير للغاية، وأكره الكذب، سأسرد حقائق، لقارئ ربما لا يتواجد أبدا.

هـذه المحاولـة العاشـرة للكتابـة، كل مـرة أفشـل وأمـزق الورقة لعشرات القطع.

الفصل الثاني

أنا كاتب سيئ، ورسام بلا موهبة، وإنسان وحيد.

الفصل الثالث

قالت سعاد:

- إنك تحصد الآن، ثمار وحدتك.

أشعلت سيجارة، وبدأت تنفث الدخان في غضب، نصفها الأعلى عارٍ، وشعرها يصل إلى كتفها، لا أعرف هل وصف سعاد في المذكرات مناسـب أو لا، لكنهـا بدت حينهـا جميلة للغاية، في خضم ممارسـتنا للحب، أخبرتها بكلمات لاهثة، أن قصتي التي أخبرتها عنها الأسـبوع الماضي، كمشـروع لرواية، هي قصـة حقيقية حدثت معي، فكرت في ردة فعلهـا كثيرا، وأردت تخفيف وقع كلماتي، فاخترت وقت الحب، لكنها دفعتني عنها وجذبت الغطاء حتى رقبتها وبحثت عن سـجائرها على الطاولة المجاورة بعصبية وهي مازالت تلهث، أشعلت السيجارة وبدأ الغطاء ينسـرب حتى عري نصفها، جلست أتابعها بعيني، لمحت فـي عينيهـا نظرات شـفقة واتهامـا بالجنـون، يعتبرني النـاس مجنونا، بسـبب عزلتـي، اختـرت ذلك، أكره البشـر والحيـاة، فقط سـعاد تبدد الأشياء السيئة، الاستثناء الوحيد، قلت:

- لا أتوقع أن تصدقيني.

- من فرط جلوسك هنا وحيدا، أصبحت صديق أشخاص صنعتهم بخيالك.

بدأت سعاد في بكاء طويل، سيمفونية حزينة، لن تنتهي أبدا.

تتشابه أمسياتي: محاولات كتابة فاشلة، رسومات لا أتقنها لأماكن لن أزورها أبدا، تفكير، بكاء دون سبب، إحساس بالغثيان يداهمني طوال الوقت، حوائط تضيق مساحتها، حتى كدت أختنق، إلا في الليالي التي أكون فيها برفقة سعاد، في أمسية مشابهة، جلست في الشرفة أدخن وأرتشف القهوة ببطء يليق بحياتي، سمعت نقرات متتالية على الطاولة، نقرات تشكل موسيقى وصفيرا متقطعا، في البدء ظننت أنها سعاد، عدت للصالة، وجدت رجلا غريبا يجلس على مقعد أمام الطاولة، يدق بيديه ويصفر بفمه ويهز رأسه ببطء، يرتدي بدلة سوداء، ولا يرتدي حذاء، حافي القدمين، إنسان أراه لأول مرة، تسمرت في مكاني، أقف بجانب باب الشرفة وهو جالس على الطاولة، ينقر بأصابعه ويصفر، فركت عيني، حركة طفولية قد تحدث مفعولا ويختفي الرجل الغريب، لأنه على ما يبدو إحدى هلوسات الطفولة، كنت أعاني من الهلوسات في بدايات عمري، توقف الرجل عن النقر وقال:

- لا تخف.

صوت رقيق لا يليق بمظهره الرجولي، قلت:

- من أنت؟ وكيف دخلت هنا؟

ابتسم، كشف عن فم خالٍ من الأسنان، تراجعت للخلف قليلا، التصق ظهري بالحائط، منظر فمه مرعب، قال:

- أتحب السينما؟

- من أنت؟

- أجبني حتى أجاوبك.

- أحبها قليلا.

عندما أتوتر، أشعر بالغثيان، عاودني الإحساس مصحوبا بألم في المعدة، لوجود رجل في صالة منزلي لا أعرفه، هذا سيئ في كل الأحوال، لو كان مجرد هلوسة أو لصًّا أو شخصا وحيدا يقتحم منازل الناس عنوة للحديث معهم، الأمور سيئة، انتصب واقفا فجأة، تحرك تجاهي، حركته خفيفة جدا، يكاد لا يلمس الأرض، وقف قبالتي تماما وقال:

- أنا قادم من السماء، مبعوث من الرب.

منظر خلو فمه من الأسنان يقتلني، قلت:

- أنت مخمور أو مجنون، كيف دخلت إلى هنا؟

- أقدر موقفك، أنا حقا قادم من الأعلى، يرسل الرب لك تحياته، يريد منك أن تذهب معي في رحلة؟

- أرجوك لا أملك المال أو أي شيء ذي بال هنا، ارحل.

- في كل مرة يحدث ذلك، سأريك شيئا.

وقف بجانبي، وقرب الطاولة، ظهرت شاشة عرض سينمائية من العدم، ازداد ارتعاش جسدي، قال الرجل:

- اهدأ، لا تخف.

لدقائق، توالت مشاهد صغيرة من حياتي، لتذكرني كم كنت منبوذا ووحيدا ومريضا طوال الوقت، مشاهد من طفولتي وشبابي ومشهد حدث بالأمس، عندما مزقت أوراق قصة كتبتها إلى مئات القطع، وعجزي عن تكوين جملة رائعة، تنسب إليّ فيما بعد، حتى إن مخاوفي ظهرت جليا على الشاشة، مخاوف النسيان من سعاد، ومخاوف الموت وحيدا كما عشت، رأيت فيلما سينمائيا يلخص حياتي، وحيدا ومنبوذا وخائفا.

انتهى الفيلم، تحرك الرجل بخفته، وجلس على أحد مقاعد الطاولة وأشار إليّ بالجلوس قبالته، تحركت، مصدوما مما رأيت أكثر من صدمتي بشاشة سينما ظهرت من العدم، ورجل يقول إنه قادم من السماء، مصدوما من مرور السنوات وما أضعت حياتي فيه، من شكوى وكره للناس، عندما جلست، قال:

- البشر لا تتاح لهم المعرفة إلا بقدر ما يريد الرب أن يمنحهم، هناك أشياء لا تعرفونها، ستعرف أحدها الآن.

- كيف هو؟

- من؟

- الله؟

- ليس مسموحا لي بالإجابة.

- لماذا أرسلك إليّ الآن، كنت أحتاجه فيما مضى أكثر.

- أنا لست هنا لإنقاذك، الرب لا يحدد حياتك ولا يرسم مصيرك، أنت تفعل.

بدا عليه أنه يحاول تلطيف الأجواء، تخفيف توتري وصدمتي، وأنا لا أمنحه الفرصة، عاد للقول:

- أحببت رسوماتك، خصوصا الفتاة.

- حقا؟

- إنها رائعة، أنتم البشر لديكم امتيازات عظيمة: الفن والأمل والمصائر والملابس أيضا.

ضحك، ليكشف عن فمه الخالي من الأسنان، بوضوح مرة أخرى، قلت:

- وما أنت؟

- أحد سكان السماء، أتعرف أكثر ما أحبه في النزول للأرض، ارتداء الملابس والتحدث مثلكم وأحيانا يهبني

الرب في رحلتي، متعة تذوق الفن ومشاهدة السينما، رحلة ممتعة دائما، أكره فقط ذعركم عند رؤيتي للمرة الأولى.

بعد دقائق من الصمت ونقرات الرجل الغريب على الطاولة، قلت:

- لو أنت قادم من عند الرب، أخبرني ما هدف كل هذا، وكيف سينتهي؟

- ستعرف في نهاية الرحلة، سترى بعينيك، أتخاف من الموت؟

- لا.

- أصدقك، لكن ماذا لو أن الموت مجرد بداية لحياة ثانية؟ أنه في الحقيقة لا يوجد موت؟

- أعتقد أنه ظلم.

- لماذا؟

- تخيل أن يعاني الإنسان ما عانيته عدة مرات!

- أنت متشائم.

- خلقني الرب هكذا!

- قلت لك، الرب لا يحدد مصيرك.

عاد الصمت، ليسجل حضوره بيننا، كأن الرجل الغريب يحاول اختيار الكلمات المناسبة، يهز رأسه، ينظر حوله، يرفع حاجبيه الثقيلين، قال:

- الإنسان عبارة عن شيء ما لا أجد كلمة مناسبة لقولها، لكن الجسد مجرد أداة، عندما تموت ينتقل الشيء هذا، ليبدأ حياة جديدة، من البداية، لا يموت الإنسان أبدا، إلا في النهاية.

- لا أفهم؟

- ستبدأ رحلتنا قريبا جدا وتفهم، سنزور حيوات أنت عشتها في أوقات مختلفة وعوالم لم تكن تتصور وجودها.

* * *

3

وضعت المذكرات جانبا، فكرت في قراءتها بتمهل يليق بها، خيالات رجل وحيد، تبدو ممتعة، وبدا هو مقنعا في حواراته مع الزائر الغريب، فتحت أدراج المكتب بحثا عن أوراق أخرى، عثرت على صورة في أحد الأدراج، صورة رجل وامرأة، رجل في الثلاثينيات، شعره أسود قصير، يرتدى بنطالا وقميصا، يبتسم ابتسامة واهنة، وجه قمحاوي، أنف صغير، وعينان ناعستان، تحتضن ذراعه امرأة، شعرها يصل لكتفيها، وعيناها واسعتان، احتجت ثواني لأعرف أنها الفتاة ذاتها في اللوحات، ترتدي هنا فستانا قصيرا، تبتسم بطفولية، امرأة تقع في غرامها من المرة الأولى، وخلفهما، في خلفية الصورة، النيل في سريانه الأبدي، يحتضن ضوء الشمس، قرأت على الصورة من الخلف «من سعاد إلى مدحت، سأظل أحبك»، سعاد ومدحت، اكتسب صاحب الخيالات، حياة بالنسبة إليّ، عرفت اسمه ومظهره، اكتسب بُعدا جديدا، ليس مجرد رجل مات منذ زمن طويل، جراء وحدته، فكرت في مصير سعاد وما حدث بعد وفاته، تذكرت كلام السمسار أنها تسكن في نهاية الشارع، سأزورها يوما ما.

قررت التجول في الشوارع، عادتي المفضلة منذ الصغر في شوارع القاهرة، وسط المباني القبيحة والحواري الضيقة، والشوارع الواسعة المزدحمة والمباني الجميلة القديمة وهي على شفا الاندثار، أمواج البشر واختلافاتهم، الابتسامات الكئيبة التي تميز المواصلات والشوارع، تشييع الموتى والاحتفاء بالحياة.

هناك مشهد لا أنساه أبدا، كنت برفقة صديق قبل سنوات، نتمشى في الشوارع، نبتعد قدر الإمكان عن بيوتنا، لندخن سيجارة، ندخنها بعيدا خوفا من الأهل أو الأقارب أو الجيران أو أي شخص آخر يعرفنا، لأننا كنا صغار السن، وفي حارة مفتوحة من الجانبين، تربط شارعين ببعضهما، عند منتصفها يجلس رجل أمام ورشة نجارة، نراه من أول الحارة، كلما اقتربنا نراه بوضوح، ينظر إلينا بجدية شديدة، كأنه يعرفنا، ظن صديقي أنه يعرفنا وربما يخبر أهلنا، أخفى السيجارة بين أصابعه، حتى وصلنا عند الرجل، فجأة قام الرجل من مقعده واستوقفنا، رجل قصير، شعره أسود وتنتشر شعيرات بيضاء في رأسه، دب الخوف في عروقنا وأعتقد أن شعري انتصب من فرط الرعب، وأمسك الرجل بيد صديقي وقال بكل جدية، كما هي نظراته:

- إنت اللي هتغني يا منعم!

خرجت الكلمات من فمه بطيئة، بصوته الأجش، كانت لحظة مهمة بالنسبة له، على ما أعتقد. ظل ينظر إلى صديقي لثوانٍ، وترك يده وعاد إلى مقعده، ومازالت عيناه تحملان نظرة جادة للغاية. تجمدنا

في مكاننا، نظر أحدُنا للآخر وضحكنا بشدة، والرجل لا يبالي، وجَّه نظراته صوب مدخل الحارة، مكان مجيئنا، لعله كان ينتظر شخصا آخر ليغني.

عدنا للمشي، نخترق الحواري والشوارع، ننفث الدخان، نتحدث، نعيد الموقف مرة ثانية ونضحك.

بعدها بأيام، وضَّب أبي أغراضه ووضبت أمي أغراضنا، أنا وأخواتي، كنت في سن العاشرة، قرر أبي السفر للخليج، ظل يحضِّر للأمر طيلة شهور، قررت أمي الذهاب للحياة في الأرياف بجانب أهلها، قالت إنها لا تحب القاهرة والحياة فيها، انتهزت الفرصة للرحيل واصطحابنا مقهورين معها، أذكر أنني بكيت بشدة، أحب القاهرة وأصدقائي وودت أن يبقى أبي معنا، كنا ميسوري الحال وقتها، من يومها ودعت القاهرة وأبي، فقدت الاثنين دفعة واحدة، كلما طالت غربة أبي أصبح غريبا عنا، وعندما عدت للقاهرة للدراسة في الجامعة، وجدتها غريبة وعدت لمنطقتنا القديمة، أبحث عن الأصدقاء، لم أجد سوى شارع متكدس على بعضه واختفى الكثيرون ومات البعض، ومن قابلته منهم، من أصدقائي، شعرته غريبا عني، أحببت القاهرة مجددا، خمس سنوات كافية لعودة الود بيننا، نتبادل العشوائية والقبح.

***

الفصل الرابع

قال الرجل الغريب:

- تذكّر أنك سوف ترى بعينيك وعيونهم، تستمع إلى أفكارهم، وتشعر بما يشعرون به.

وذهبنا للحياة الأولى التي رأيتها، أو أن فيها مضى.

بعد سبات عميق، بدأت ليلى في الاستماع إلى أصوات ضعيفة، تأتي إليها على فترات، لا تميز من الأصوات شيئا، مجرد همهمات مبهمة، لكنها تأتي على أي حال، تبدد قليلا إحساسها بالوحدة. ظلت فترة طويلة أسيرة لذكرياتها وسقف الغرفة الأبيض، فترة لا تعرفها، انعدم إحساسها بالوقت، لا تتذكر ما حدث بالضبط، لكنها أفاقت في يوم، وهي تنظر لسقف الغرفة ولا تسمع شيئا، ربما حادث مأساوي أصابها، أو مرض غريب، يجعلك تعيش على ذكريات السنوات الماضية، أحيانا يزورها الطبيب، يضع ضوءًا أصفر في عينيها ويغادر، ترى ممرضة شقراء كثيرا، وبعض أقاربها وخصوصا والدها وزوجها، في البدء كانت مرتعبة، فاقدة لكل شيء إلا عينيها وبها أيضا خلل لا يوسع مجال رؤيتها، وعقلها. اعتادت على الأمور سريعا، تخلصت من الهلع الكامن في نفسها وبدأت تتوغل أكثر في حياتها الماضية، تريد فقط أكثر من أي شيء آخر، معرفة ما حدث.

يتوسط سرير ليلى غرفة كئيبة، بها نافذة واحدة ومروحة تقف على طاولة صغيرة بجانب السرير، وعلى الأرض في كل أركان

الغرفة، باقات ورد، وثلاثة مقاعد تتجاور بجانب باب الغرفة معدة للزائرين، لا تميز سارة شكل الغرفة، تعرف السقف، مرضها لا يسمح لعينيها بالحركة، رويدا رويدا، بدأت ليلى تستمع جيدا لجميع الأصوات، ميزت الصباح والمساء، بسبب أصوات الطيور على الأشجار المجاورة للمستشفى، كلما ازداد صخب الطيور تعرف أنه الصباح وفي المساء يعم الهدوء، يفرض نفسه بقوة، لتبقى مع ذكرياتها فقط، في الصباح تستمع لكل شيء، أحاديث الدكاترة في الممرات والمَمرضة المختصة برعايتها وهي تدندن بصوت شبه خفيض، بدأت الأمور تتغير للأفضل، صباح أحد الأيام، جاءت صديقة ليلى المقربة، قالت:

- صباح الخير يا ليلى، أرجو أن تكوني مرتاحة.

سمعت ليلى بوضوح صوت صديقتها وهي تجر المقعد للجلوس بجانب السرير، بدأت تميز الأشياء من الأصوات، تتبدد عزلتها قليلا، تستمع جيدا لصديقتها، قالت ليلى في بالها، لتغني قليلا أو تقرأي كتابا من أجلي، لكن صوت صديقتها جاء حزينا، قالت:

- ليلى، سامحيني لقد خذلتك كثيرا وكرهت كونك جميلة ومتميزة، تزوجتِ الرجل الأفضل، عملك في شركة كبرى، لديك حديقة في منزلك وحمام سباحة، كرهتك كثيرا يا ليلى ولا أعرف إن كنت تستمعين، أنا آسفة جدا، تمنيت موتك في أغلب الأيام.

سمعت ليلى جيدا، كلمات صديقتها، وشهقة البكاء الأخيرة، راقدة في مكانها، لا تستطيع الكلام أو البكاء، لا تستطيع تحريك يديها لتملس على شعر صديقتها كما تحب وتخبرها أنها تسامحها. طوال الليل فكرت في وظيفتها والمنزل الفسيح، تكره المنزل والوظيفة، لكنها أشياء ضرورية لنمط حياة مريحة، سنوات تقاتل لجمع المال لا تستطيع الاستمتاع به.

في صباح اليوم التالي، يوم السبت، موعد أغلبية الزيارات، دون أن تعرف، السبت الماضي كانت شبه صماء، ودون أن تعرف أن إرسال الورود إليها توقف أيضا وينتظر الناس موتها، ليقدموا تعازيهم للزوج والأب. سمعت خطوات ثقيلة على بلاط الغرفة، خطوات والدها، تعرفها جيدا، شعرت بالحنين والحب تجاهه، رأته جيدا، مال عليها في مجال رؤيتها، حجب السقف عن عينيها، وقبل جبينها، ظل مائلا عليها برأسه وقتا طويلا، تمعنت فيه وشعرت بعجزه عن آخر مرة رأته في منزله، نظر الأب في عينيها وقال:

- يا ليلى، إن كنت تستمعين إليّ، يجب أن تستيقظي، الأسبوع القادم، سنحقنك بحقنة مميتة، يقولون هذا أفضل، الموت الرحيم، لا أريد أن أفقدك يا ليلى، منذ الحادث وأنا أذهب يوميا للكنيسة وأصلي للرب، لكنه لا يستمع يا ليلى كما كنت تقولين دائما، أحبك.

رأت الدموع تنهمر من عينيه، عاجزة عن مواساته، كما فعلت لسنوات منذ وفاة أمها، في النهاية سمعت خطواته الثقيلة مرة أخرى وهو يغادر الغرفة.

بعد رحيل الأب بدقائق، حضر زوجها، يتبادل الحديث مع امرأة لا تعرف صوتها، زوجها كان حصنها المنيع في مواجهة كل مساوئ الحياة، أحبته منذ الرابعة عشرة من عمرها، وتتذكر أمسيات الصيف على ضفاف البحيرة معا وممارسة الحب وسط الأشجار وولادة ابنهما الوحيد، عادت الذكريات تباعا بقوة عندما استمعت إلى صوته، ناسية لوهلة حكاية موتها الأسبوع القادم وحزن والدها، قال الزوج:

- صباح الخير يا ليلى؟

ثم موجها الحديث للمرأة القادمة معه، بنبرة ساخرة:

- أرأيت إنها لا تجاوب ولا تستمع، هي ميتة.

قالت المرأة:

- عيناها مفتوحتان.

- لا ترى شيئا، إنها تتنفس فقط.

شعرت ليلى بالفزع والخوف، وداهمها إحساس بالوحدة ورغبة في الصراخ، صمت صوت زوجها والمرأة، لتستمع لصوت قبلات بينهما وآهات لذة مكتومة، زوجها يخونها، انهار بنيان حياتها في لحظات مرضها، لتستمع إلى خيانة زوجها وكره صديقتها، أقرب الأشخاص إليها وهي مكبلة في سرير، داخل مستشفى، لا تستطيع فعل شيء سوى الاستماع والحزن، لا تملك رفاهية التململ والصراخ، تمنت الموت، عليها الآن مواجهة الساعات الطويلة، وهي تفكر في صدق

ما فات من حياتها وتعيد مرارا وتكرارا صوت قبلات زوجها مع امرأة لا تعرفها، لتبكي بداخلها فقط، تملك الوقت للتذكر والندم والموت كل دقيقة.

جاء زائر آخر، يحمل وردة وحيدة، رجل في منتصف الثلاثين، تذكرته ليلى وهو يقبل رأسها ورأت يده تتحرك تجاه شعرها، خمنت أنه يملس على شعرها، صديق منذ أيام الطفولة، في مدينتها البعيدة، صديقها وصديق زوجها، قال:

- ليلى، أتمنى أن تعودي لحياتك الطبيعية، أنا أؤمن أنه يمكنك الخروج من هنا سليمة، إن كنت تستمعين، لطالما آمنت بك وأحببتك يا ليلى، أحببتك كما لم يفعل أي شخص آخر، لم أكن أملك الشجاعة لقولها، أحببت ابتسامتك ولون شعرك، أحببت الجلوس قربك في رحلات المدرسة وأحاديثنا الطويلة في فترة الشباب، أذكر كل شيء يا ليلى، أريدك أن تنهضي، لا أستطيع أن أفقدك ثانية، بقاؤك حية وسعادتك مع زوجك، عزاء لي، أحب حين تكونين سعيدة يا ليلى، سميت ابنتي على اسمك، لتنهضي الآن، عرفت أنهم بصدد قتلك الأسبوع القادم، لن أكون في عزائك يا ليلى، لا أستطيع.

سمعت صوت بكائه، دون أن تراه، كل هذه الكلمات خرجت من فمه وهو يبعد عنها سنتيمترات ولم تستطع رؤيته، لن تستطيع أن تقول، أنا أيضا أحببتك واعترافك أسعدني، لن تستطيع الاستلقاء على كتفه والبكاء لخيانة زوجها، كما الأيام الخوالي، عاد الصمت، عرفت أنه

رحل، مكبلة وضائعة ووحيدة وعلى شفا الموت، لا تدري ما حدث، تتمنى فقط أن تعود صماء، لا تسمع شيئا حتى ميعاد موتها.

بدأ لون السقف الأبيض يبهت في عينيها، شعرت بالمرض أخيرا وسمعت أصوات الأجهزة الطبية وخطوات كثيرة على أرضية غرفتها، بدأ السواد يحيطها، ضوء صغير ينسرب إليها، رأت من خلاله، زوجها يبكي وهو يحتضن والدها، وصديقها، صديق الطفولة، يقف بجوارهما، يمسك وردة حمراء، ثم أغمضت عينيها.

* * *

4

رن هاتفي في السابعة صباحا، صوت سارة الناعس، تذكرني بميعاد لقائنا، في الثامنة، كنت ممتنا لاتصالها، قلت شكرا، لم تفهم الأمر، وأغلقت في وجهي لتستحم سريعا، أيقظتني سارة من كابوس الغيبوبة، وجدت نفسي نائما، كما هي فتاة أحلام مدحت، والعالم يمر من حولي، نوم أشبه بالموت وتصلني أصوات الجميع، لا أتحرك، ووجدت كل ما أعرفه، يأتي لغرفتي، يتحدث عن خيانته لي أو كرهه المزمن لشخصي، وأنا أتجول بعيني في سقف الغرفة الأبيض، لن أقرأ مذكراته قبل النوم مجددا، ربما أقرأها في ساعات الصباح الأولى، أو أي وقت لا يساعد على حدوث الكوابيس، يكفي ما أحتمله.

المقهى، الشبيه بعطفة صغيرة، خالٍ من الجميع، إلا رجل يرتدي بدلة ويدخن الشيشة بعصبية شديدة، أنفاس سريعة، نظر في ساعته عدة مرات في وقت قياسي، راقبته قليلا، لا يوجد ما أفعله خلال وقت انتظار سارة.

بعد قليل، بدأ توافد الموظفين والعمال على المقهى الصغير، صخب هادئ، وأدخنة متصاعدة، قابلت سارة أول مرة هنا، كنا

نجمين متجاورين. في صباح شتوي، أعجبتني طريقتها الطفولية في تدخين السجائر، وشعرها الطويل، وعيناها السوداوان، بعض خصلات شعرها تهرب للأمام، تزيحها بعيدا، تقرأ لكافكا، كانت فاتنة. عندما رفعت رأسها عن الكتاب لترتشف الليمون، نظرت إليّ، وضبطتني أنظر إليها ببلاهة، تبادلنا بعض الكلمات، وطال حديثنا، ساعة أو أكثر. قصصت عليها حياة كافكا كما قرأت عنها، أعرف تقريبا حكايات الجميع، ولا أحد يعرف حكايتي. ربما لأنني لست مشهورا مثل كافكا. يملك الجميع حكايته الخاصة، ولا يملك الجميع مهارة رواية قصة. دقائق تمر، تزداد ابتسامتها اتساعا. في النهاية قالت:

- تعجبني طريقتك في الحكي.

ابتسمت ممتنا، أبتسم كثيرا لكلمات الثناء، قلت:

- يعجبني شعرك.

تبادلنا أرقام التليفونات. على أمل لقاء قريب، دفعت الحساب وغادرت. تمنيت أن تنظر للخلف وتلوح لي، أردت دائما تلك اللحظة، التلويح من بعيد وقت الرحيل، خاب ظني قليلا. في الأيام التالية، كنا نتقابل تقريبا في كل صباح. هي تهرب من منزل والديها في الصباح، لتدخن وتقرأ قبل ميعاد المحاضرة الأولى، وأنا لا شيء أفعله سوى الجلوس على المقهى في الصباح، أيام الاستيقاظ مبكرا بلا أي هدف، منحتني سارة ما أفعله في الصباح، حكيت لها قصصا كثيرة، عن أدباء وفلاسفة، وتحكي هي بدورها قصتها مع والديها، وبدايات

القراءة والتعرف على مقاهي وسط البلد، كنا نتقابل في الصباح لنتبادل الحكايات، وفي مرة تقابلنا مساء، على نفس المقهى، وكنا في جلسة تجمع عددا من الأصدقاء، نتحدث وندخن، رأيتها مختلفة عن الجميع، لا أدري متى حدث الأمر، لكنني أحببتها.

ذهب الحديث في هذه الليلة عن الرسم، أمسكت طرف الحديث من الجميع، ووجهت أنظارهم جميعا إليّ، وأنا أحكي قصة عن رسام مشهور، يبحث عن النساء التعيسات، يبحث في الأسواق والطرق الجانبية، وفي المناطق الفقيرة داخل مدينته الواسعة، وعندما يفشل في إيجادهن يصعد لمنازل البغاء، يختار العاهرة الأكثر تعاسة ويدخل معها الغرفة، لا ليمارس الحب معها، بل ليرسمها، معتقدا أن للوجوه التعيسة وخصوصا من النساء، جمالا خاصا، إلهيا، وعندما مات الرسام، في نهاية المطاف كالجميع، وجُد في منزله مئات الرسومات، لمئات النساء التعيسات، يحتفظ بها في قبو منزله، وكل لوحة تختلف عن الأخرى، الوجوه التعيسة لا تتشابه، باعت زوجته جميع اللوحات، ظنا منها أن لوحات الحزن هذه، كما سميت لاحقا، تجلب الحظ السيئ، باعتهما مقابل ثمن بخس، لتشتري فستانا جديدا يبرز جمال جسدها، ليقع في غرامها شخص ما لا يهوى الرسومات أو الفن، ولا يبدد حياته في البحث عن التعاسة.

أعجبتهم القصة وشاهدت لمعانا في عيونهم، لا أهتم سوى بسارة، بلمعان عينيها السوداوين، برأسها وهي

تهتز وقت سرد الحكايات. ذهبت لتوصيلها إلى موقف عبد المنعم رياض، وقرب التمثال أوقفتها وقلت:

- أريد إخبارك عن ثلاثة أمور.

- الآن؟! أنا تأخرت.

- لا تقلقي، أمور صغيرة للغاية.

- قل!

- الأمر الأول لا تبحثي عن قصة الرسام على الإنترنت، إنها قصة من وحي خيالي.

- لكنك أقسمت أنها حقيقية.

- أنا أقسم كثيرا.

ضحكت ونظرت للأرض:

- سيبحث عنها الجميع، لقد عبثت بنا.

- والأمر الثاني، أنا لا أعرف كيف حدث الأمر الثالث، ولن ألومك على رد فعلك.

نظرت إليّ متوجسة وقالت:

- وما هو الأمر الثالث؟

- أنا أحبك.

كنت يومها أرتدي سويت شيرت، وأضع الزعبوط الملحق به على رأسي، ابتسمت وضحكت، وجذبتني من أطراف الزعبوط وقبلتني على خدي وظلت مبتسمة، متفاجئة، تمشينا معا قليلا حتى الموقف، قالت كلمات كثيرة مشتتة، وأنها أيضا تحبني، ولا تدري كيف تخبرني، قررنا الحديث أكثر في لقائنا القادم، الصباح الذي يليه اعترافي الصادق بالحب للمرة الأولى، مشيت سارة قليلا وبقيت في مكاني قليلا، أتابعها، وقفت والابتسامة لم تفارق وجهها ولوحت لي من بعيد.

جاءت سارة أخيرا، متأخرة نصف ساعة كاملة، قبلتني على خدي وجلست، تحدثنا عن الشقة الجديدة، لم أخبرها عن الرسومات أو المذكرات، اعتبرته سري الخاص، كنت لا أريد لأحد الاقتراب منه. قالت:

- أنت لا تنام كثيرا هذه الأيام!

-نعم، ألا توجد مسرحيات رديئة في هذه الأيام؟

- لماذا؟

- أريد النوم، لم أنم جيدا منذ فترة بعيدة.

- وما دخل المسرحيات بذلك؟

- المسرحية الرديئة، وخصوصا إن كانت في مسرح مقاعده وثيرة، مع صوت الممثلين الجهوري بلغتهم الفصحى الرديئة، تمنحني تذكرة

مجانية بالنوم دون أن أشعر، ولا أستيقظ سوى على صوت التصفيق من الجماهير.

- تدفع عشرين جنيها لتنام؟

- سأصحبك في مرة لمسرحية رديئة وستفهمين.

أدخن وحيدا، أقلعت سارة منذ مدة، دخنت فقط لتشبه الجميع، ومنذ إقلاعها تطاردني لأقلع أنا أيضا، السجائر رفيق دائم ومخلص في أحلك الأوقات، سهلة وبسيطة، لا تحتاج إلا ولاعة أو أعواد ثقاب، لتتجاوب معك.

* * *

الفصل الخامس

جلست داخل الشرفة، أتصفح كتابا عن الوهم ونوباته، مازلت حائرا، في أمر الكائن الغريب، مبعوث الرب على حد قوله، من يتجول بخفة داخل شقتي. في طفولتي، اكتسبت أصدقاء عدة، لم يكن أحدهم حقيقيا، صنعتهم. قطع الزائر الغريب أفكاري، يقف على مدخل الشرفة. قال:

-مستعد للرحلة الثانية؟

قلت متحمسا:

-لنذهب.

يمشي بتثاقل، يحمل كيسا أبيض شفافا، بداخله سمكة طويلة، صفراء، تتحرك بارتباك داخل الكيس المملوء بالمياه، تحاول الهرب دون جدوى، وجدت نفسها في عالم صغير، لا يشبه عالمها الواسع، لا ترى أسماكا سواها في الكيس، تراقب بعينيها الصغيرتين، وجه الرجل المخيف والأشجار على جانبي الطريق، أشجارا أوراقها صفراء، لا تميز الأشياء، وتجهل مصيرها، خرجت من النهر، حيث كل شيء مفهوم، إلى يد كائن مخيف وعالم غريب. انتهى ممر الأشجار، أفضى بالرجل والسمكة إلى مساحات خضراء واسعة، يتأرجح الكيس في يد الرجل، والسمكة تتأرجح معه، أول مرة تقترب من إنسان بهذا القدر، تراقبهم دوما من بعيد وهم يسبحون في النهر، يثيرون الذعر ويرحلون

سريعا، شعرت بالندم، لأنها لحقت بقطعة الطعام، دودة صغيرة تتلوى أمامها، فتحت فمها وابتلعتها، لتلتصق قطعة حديدية صغيرة بفمها، ألم مبرِّح وصعود عنوة للسطح، ليبتلعها العالم الغريب كما أرادت ابتلاع الدودة الصغيرة، مازالت تتحرك في الكيس، وتراقب العالم الغريب، لا تعرف مسميات الأشياء سوى في النهر، هنا هي غريبة ووحيدة، تذكرت أصدقاءها القلائل، واللعب بين الصخور في قاع النهر والقفز خارج المياه لثوانٍ والعودة سريعا للماء، شعرت بالحنين للضوء الدافئ وهو يخترق المياه في الصباح الباكر، الضوء القادم من القرص الأصفر الكبير، المعلق في السماء. يسير الرجل بخطوات واسعة، رأت السمكة كائنا بشريا آخر، يقترب، قامته قصيرة، وضع الرجل الكيس على الأرض واحتضن الفتى الصغير.

وضعت السمكة داخل حوض زجاجي مستطيل، يختلف عن الكيس الشفاف في الثبات، لا يتأرجح، تراقب عدة كائنات بشرية الآن، لا يدرك أحد منهم أن السمكة تشعر بالحنين للمنزل وتراهم بعينين خائفتين، هي مجرد طعام بالنسبة إليهم، حقيقة لا تعرفها السمكة، مازالت تجهل مصيرها، أصابتها حالة هلع، عاودت الحركة بهيستريا، تحاول الهرب، خبطت رأسها في الحوض الزجاجي عدة مرات، لا مفر، عرفت أخيرا، أن حريتها حلم بعيد المنال، والنهر الكبير بعيد جدا.

قطرات صغيرة من الماء، تتحرك وسطها في رعب، يراودها إحساس مؤلم، تتحرك داخل مربع صغير، تتخبط في أشياء ثقيلة، ترى

كائنا بشريا يراقبها، وجدت نفسها في عالم صغير آخر، لكنه يفضي إلى الموت، تذكرت النهر والأسماك، ضوء الشمس، شعرت بالوحدة والذعر، استجمعت قواها، لتقفز خارج الحوض، محاولة يائسة أخيرة للهرب، قفزت لأعلى بجسدها، لم ترتفع إلا قليلا، في النهاية، أطبقت يد ضخمة على جسدها، ثبتتها في الحوض ورأت السمكة جيدا، وكان الشيء الأخير الذي تراه عوضا عن المياه والأسماك، آلة حديدية، تهوي على رأسها.

قلت:

- لا أصدق ذلك!

- وما هو؟

- كنت في يوم، مجرد وجبة غذاء لأسرة تعيش في الضواحي؟

قال الزائر وهو يضحك:

- نعم.

- لماذا تضحك؟

- النظرة على وجهك، الرعب وقد استقر في عينيك، كما استقر في عينيك وأنت سمكة والسكين تهوي عليك، متشابه.

- والسمك يملك أحلاما ويشعر مثلنا؟

- أنتم البشر، لا تعرفون الكثير وتتغنون بتفردكم وهذا تقريبا سر المأساة.

* * *

5

هربت قطة سارة الصغيرة من المنزل، وجدت الباب مفتوحا وهربت، ولم تفلح محاولات سارة في إيجادها، جاء صوتها حزينا عبر الهاتف، وتدخل في نوبات بكاء صغيرة متقطعة، قالت: القطط الكبيرة في الشارع لن ترحمها.

لا تعرف سارة أن الشارع لا يرحم الجميع، القطط والبشر. هناك دائما كائن أقوى منك يحاول أذيتك، الحياة في شوارع القاهرة خطر على البشر وخطر على حيوان صغير مغطى بالشعر الأبيض، احتفظت بآرائي لنفسي، أستمع فقط وأدخن، أغلقت الهاتف لتنزل الشارع للبحث عنها ثانية. فكرت في مصير القطة الصغيرة، تحاول اكتشاف العالم، خارج المنزل، هربت من منزل ولادتها، إلى الشارع، لا تعرف ما ينتظرها بالخارج، لم تتعامل بعد مع بشر يركلونها بأقدامهم لمجرد المزاح، أو لرغبتهم في إيذاء أي كائن يتنفس. القطة قطعت درجات السلم، بشعرها الكثيف، وفي الشارع تستقبلها الشمس والأتربة، ربما اعتقدت أنها تلعب، حين همت بالنزول للشارع وفشلت في العودة.

تذكرت سمكة مدحت، وضع الرجل نفسه في جسد سمكة، أي عذاب فعله بنفسه، مصير مرعب أن تُولد إنسانا، فما بالك أن تُولد كائنا صغيرا لا حول له ولا قوة في مدينة قاسية مثل القاهرة، أشفقت كثيرا على القطة، ربما تجلس الآن أسفل سيارة، ترتعش وعدة أطفال يقذفونها بالطوب. قطة أو سمكة أو كلب، يشعر ويفكر ويتذكر، يعيش وسط البشر، خصوصا هنا، مصير مرعب حقا.

أفكر في الدفء والعودة لحياتي القديمة، للمنازل المألوفة، لكنني أجدها متشابهة، أظل تائها في شوارع لا أعرفها، ولا تسعفني الذاكرة، مثل القطة الصغيرة، عليّ العودة، ونتشارك أنا والقطة مصيرا مشتركا وهو الضياع، مأساتي هي مأساة القطة الصغيرة، الرغبة في رؤية العالم، العبور بسذاجة من الباب المفتوح، دون شعور بالخطر.

فى نوفمبر 2011، خرجت من شارع محمد محمود، بأكثر من مجرد اختناق بالغاز المسيل للدموع، بدأ الاحتكاك بالأحلام، أحلام تتجاوز التخرج في الكلية، وأن أكون فتى أحلام فتاة جميلة، أضع تصوراتها في ذهني من فتيات الشاشة والإعلانات، تضخمت أحلامي، أصبحت مهموما بالوطن، وبدأت الحياة تثقلني وبجانب الأحلام، تزداد أيضا خيبات الأمل، تشبثت بآمال ظننتها ممكنة، وخضت نقاشات طويلة وعرفت أصدقاء جددا، وهتفت حتى ضاع صوتي في المظاهرات، ورسمت في خيالي مدنا فاضلة، كنت صغيرا وربما ساذجا، لأنني عبرت من الباب دفعة واحدة، مثل القطة الصغيرة، وفي

يوم وليلة انهار كل شيء، أصبحت مجرد كومة من الأفكار واليأس، حاولت العودة لحياتي الأولى، الدافئة، إنسان عادي يفكر في الوظيفة الحكومية والزواج، وإهدار عمره داخل مكتب صغير، يمارس فيه عملا لا يحبه ويتلقى الأوامر طوال عمره. فشلت في العودة، لا أجد الدرب، لم يعد موجودا، تلاشى وبقيت وحيدا وتائها ومثقلا بالهموم، وفوق رأسي، سحابة من اليأس لا تغادر، أشبه القطة كثيرا، ستحاول مواصلة حياتها في الشارع، تتحمل سخافات قطط الشوارع وقسوة البشر الزائدة. أأجد نفسي في حياة أخرى قطة، تعيش هنا. لا أريد هذا، لا أحب المصائر المرعبة، حتى وإن كنت لن أتذكر أنني في يوم كنت في جسد قطة صغيرة تعيش في شوارع القاهرة، كان مدحت يقسو على نفسه.

رن الهاتف، صوتها فَرِحٌ، وجدت القطة، عند جارتها في الدور الأعلى، لم تذهب القطة للشارع، صعدت لأعلى، كُتب للقطة النجاة، ضحكت، وكالعادة لم تفهم سارة سبب الضحكة.

* * *

الفصل السادس

قال الزائر الغريب:

-تملك مكتبة رائعة!

قلت:

-نعم، أحب القراءة، خصوصا الروايات.

-لماذا؟

-الكتب نافذتي الوحيدة على العالم.

عرفت القراءة متأخرا، في سن الثامنة عشرة، أو أكبر بقليل. وقتها تخليت عن أوهام الطفولة، وخرجت مرتبكا للشارع، للجامعة، كلية الحقوق. قبلا كنت لا أذهب للمدرسة إلا لتأدية الامتحانات وأعود في سيارة والدي. كنت طفلا يكرهه الجميع، منزويا، ذا نظرات قلقة.

قال الزائر الغريب:

-أنت تفكر كثيرا يا رجل. ثم قال:

-هل انتهيت؟

كنت أرسم ليلى، المرأة طريحة الفراش، من يُخبر الزائر الغريب، أنها أنا بشكل أو بآخر. وضعت الفرشاة جانبا. قال:

-لنذهب للرحلة التالية.

على أضواء الشموع، ينكب رجل على أوراقه، ورقة تلو الأخرى، يدخن أنفاس سجائره حسب عدد كلماته، يسعل بشدة أحيانا، يتلقى نظرات زوجته القلقة بابتسامة ضعيفة، تجلس على أريكة هالكة تصدر صريرا لأقل حركة، تخيط فستانها، فستان المجد كما اعتاد الرجل تسميته، يتوقف قليلا عن الكتابة، يصوب نظراته تجاه زوجته، يراها تعمل بجهد وهي تخيط الفستان، أعطاها نصف مرتبه الشهر الماضي، لتشتري قماشا لأجل صناعة الفستان، للحفلات التي تقام على شرفه بعد نجاحه، هكذا وعدها، يخرجه السعال مرة أخرى من أفكاره، تقول زوجته بنبرة خائفة:

-ستقتلك السجائر!

ابتسم دون رد، عاد لأوراقه، بعد دقيقة أو أكثر، رفع رأسه وصوَّب نظراته تجاه زوجته وقال:

- لا، لن يقتلني شيء سوى الكتابة، إذا مت أخبري الناس بهذا، لا تلقي اللوم على سجائري.

يكادينتهي من روايته الرابعة، يكتب كلماتها الأخيرة، له ثلاث روايات، لم يحقق أي نجاح يذكر، لا يؤمن به أحد سوى زوجته وهي لا تستطيع القراءة، وناشر ينتمي لعلية القوم يعيش في الجزء الثاني من المدينة، جزء الأغنياء وكبار رجال المدينة، يطالبه الناشر بمزيد من الأوراق، بمزيد من النهايات المكتوبة بعجالة والبدايات المتأنية، بالأحداث الواقعية لمدينة تغرق في أوهامها، سمة كل رواياته. قالت الزوجة:

- أشعر بنجاحك هذه المرة.

- لا أعرف، لا أحد يقرأ في مدينتنا، الفقراء لا يملكون المال لشراء الكتب، والأغنياء يريدون قصصا تسلي أوقاتهم، قصصا عبارة عن نميمة مناسبة للجلسات الطويلة في الصالونات. ثم أضاف بعصبية:

- لا أحد يقرأ، خلقني الرب بموهبة لأهدرها هنا، وسط هؤلاء الناس.

- لا تغضب، المشوار طويل.

- يا عزيزتي الجميلة، سأموت مجهولا كما عشت، وفي النهاية سوف تُحرق كتبي ليتدفأ بها الأغنياء والفقراء على حد سواء، في ليالي الشتاء.

توقف عن الكتابة، ليس بسبب تعرُّق يديه وإنما بسبب اليأس، ينظر للفراغ المظلم الممتد أمامه، كأن شقته الصغيرة ممتدة إلى ما لا نهاية بسبب الظلام، لكن على بعُد خطوات من مكان جلوس زوجته، يوجد حائط يفصله عن الشقة المقابلة، حائط يختفي وسط الظلام، أضواء الشموع الضعيفة تضيء حيزا صغيرا، نظر صوب النافذة الصغيرة، تكاد تختفي، يبتلع الظلام كل شيء، يكره الرجل الظلام لكنه مجبر على الحياة معه، في شقته الصغيرة، يراقب زوجته، يمنحها ضوء الشموع الخافت، وجه قديسة، تجلس شبه عارية على الأريكة بسبب الحر، تدندن بكلمات أغنية لا تصل لمسامعه.

في اليوم الثاني، يوم تسليم روايته الرابعة للناشر، استيقظ الرجل في الصباح الباكر على وقع خطوات زوجته على الأرضية الخشبية للمنزل، المنبه اليومي لرجل يعيش تعاسته الخاصة، ظل دقائق نائما في السرير، يمسك بأحلام اليقظة، خيوط بسيطة من الشمس تدخل من نافذة غرفة النوم، يرى نفسه يعيش في منزل، لا تخطئه الشمس، منزل محاط بحديقة واسعة، حيث يمكن لزوجته أن تجلس في الصباحات الحارة تحت شمسية وهي تتسلى بالغناء، بعيدا عن أصوات الجيران المرهقة للنفس، رأى نفسه يوقع كتبه ويرتاد حفلات كبار المدينة رفقة زوجته، وقد أزاحت عنها عبء الحياة والفقر، وقتها يمكنه أن يحظى بنوم هادئ طويل، يريد الشهرة والمال والقراء، أغلبية أحلامه تدور حول زوجته، يحبها أكثر من الرب، كما أخبرها في يوم زفافهما.

انتهى من عمله في الظهيرة، يعمل داخل مصنع لصناعة الشموع الرديئة، تباع للفقراء بأثمان بخسة، خلع عنه بدلة العمل وارتدى بدلته الوحيدة، بدلة سوداء مازالت جيدة، اشتراها متهورا رغم ثمنها الغالي، في صباح يوم زفافه، ليبدو لائقا لأجل حبيبته، يرتدي بدلته أثناء ذهابه للجزء الآخر من المدينة، جزء الأغنياء، أثناء تقديم أوراق كتبه للناشر. يسير متمهلا وسط الأزقة الضيقة، خوفا من سقوطه في حفرة ما أو بلاعة قاذورات مفتوحة وما أكثرها هنا، يشتم عفونة المنازل ذات الأدوار الثلاثة، يتميز هذا الجزء من المدينة بالمباني الخشبية، ثلاثة أدوار لكل مبنى ومصانع صغيرة يملكها الأغنياء، لكنها تقوم

على أكتاف رجال ونساء بؤساء يعملون ليلا ونهارا ليعيشوا أياما متشابهة، وسط الطعام السيئ والشموع الرديئة والخمور التي تسبب أمراضا بمرور الوقت، وبسبب ضيق الأزقة وقرب المنازل من بعضها. لا يطلق هؤلاء الناس العنان لأنفسهم، حتى وقت ممارستهم للحب. لا يصدرون أصواتا عالية وقت النشوة، لا يوجد هنا صراخ الحب الأبدي، يوجد صراخ الموت واليأس والسباب واللعنات، مازال الرجل يمشي ويفكر في أبناء مدينته، يكاد يحتضن حقيبته خوفا من سقوطها في إحدى برك المياه المنتشرة، انعطف داخل زقاق طويل، يرى في نهايته ضوء الشمس واضحا، يسير بسرعة، ينتهي الزقاق ويرى الجسر الذي يفصل أجزاء المدينة عن بعضها، يشتهر الجسر بالشحاذين، يعبر وسطهم، تقابله البيوت البيضاء، بيوت من دور واحد، يسكنها المحظوظون.

الشوارع ممهدة وعلى جانبيها تقع أشجار طويلة، جميلة، هكذا قال في سره، يتنفس هواء نقيا، قرر تدخين سيجارة ليستمتع جيدا بالأجواء الرائعة، أجواء يعيشها مرات قليلة، ينعطف وسط الشوارع والبيوت، لا مصانع ولا سباب، لا شيء سوى الهدوء، أحيانا يتلقى الرجل نظرات احتقار، بدلته جيدة، لكن أصابع قدميه تخرج واضحة من حذائه، تسيء لمنظره، لا تنفعه حتى تصفيفة شعره المتقنة، تنطق نظراتهم باحتقار مطلق، يبادلهم الكره والنظرات، يحب المكان ومناظر البيوت ويمقت ساكنيها،

يسعل بشدة، يرمي السيجارة وقد تبقى نصفها، يسير للأمام قليلا مصحوبا بالندم، يعود أدراجه ويأخذ السيجارة من الأرض ويكمل طريقه، وصل لبيت الناشر أخيرا. استقباله الرجل بالترحاب، جلسا في حديقة المنزل، يشرب مياها مثلجة، يتنهد، تخطفه أحلام اليقظة من أحاديث الناشر، ليعود ويصطنع الاهتمام، يمتد اللقاء ساعة، لا يريدها أن تنتهي، يريد الاستلقاء على العشب الأخضر، عاري الصدر، مطمئنا للغد، والأيام الماضية ذكرى لا تؤرقه، يكتسب منها التجربة والحكمة فقط، ليحكيها لأحفاده وقرائه لاحقا.

في نفس الليلة، عاد لمنزله متأخرا، تفوح منه رائحة الخمر، لا يترنح، اكتفى بعدد قليل من الكئوس، فقط الرائحة تلازمه، وجد زوجته جالسة في مكانها على الأريكة، تستمر في خياطة الفستان، اقترب منها، احتضنها بيديه من الخلف، يقبل شعرها ويشتم رائحته، تتحرك يداه على خصرها، تتململ هي برقة، تحرك رأسها، أزاح قميصها الشفاف، عن جسدها، يمسك شعرها الطويل في يده، ليقبل ظهرها العاري في شموخه، لا يبالي بقطرات العرق التي تنساب من جسدها بسبب الحرارة، يقبلها بنهم وحب، مازالت جالسة في مكانها، تغمض عينيها، يترك شعرها بهدوء على ظهرها، يقبل خدها ويداعب نهديها دون أن يراهما بأطراف أصابعه.

بعد ثلاثة أيام، استيقظ الرجل وهو يشعر بشيء يجثم على صدره، ويسعل بشدة، يوم شديد الحرارة، تجلس بجانبه زوجته، تمسح

العرق عن رأسه، يسعل دماء، أفكاره حائرة، يخشى الموت، لكنه يريد تقبله كرجل، اصفرار وجهه، أصاب زوجته بالهلع، رآها وهي تقف أمام النافذة الصغيرة تناجي الرب أن يمنحه الحياة ويشفيه، بصوت مسموع، شعر بالشفقة تجاهها، عليه توديعها هي وأحلامه، وكتبه غير المباعة في المكتبات، وأوراقه الصغيرة الشاعرية التي يحتفظ بها في درج مكتبه وقد كتبها لأجل زوجته التي لا تجيد القراءة.

عدنا للغرفة، نظرت للساعة، تشير للثانية عشرة ليلا، غادرنا في الحادية عشرة ونصف، ثلاثين دقيقة فقط، لنرى أياما طويلة، مختصرة في دقائق، أحلاما ومخاوف ومدينة بعيدة لا أعرفها.

شعرت بالشفقة تجاه الكاتب، وشعور بالخجل لم يبارحني لرؤيته يمارس الحب مع زوجته. كأن الزائر الغريب يقرأ أفكاري، قال:

-لا تخجل، في النهاية كانت زوجتك في حياة ماضية.

قلت لأغير الحديث:

-هل كان كاتبا رائعا ويستحق النجاح؟

قال الزائر الغريب بلهجة ساخرة:

-نعم، كنت كاتبا رائعا يستحق النجاح!

-مازلت غير متعود على هذه الفكرة، أنني هؤلاء جميعهم.

-تعوَّد لتصبح الأمور أسهل.

ثم وقف الزائر الغريب أمام أربعة كتب، وأشار إليّ للقدوم. وقفت أمام الكتب، جميعها لكاتب واحد، كاتب مكسيكي، سيئ الحظ، نال شهرته بعد وفاته، كاتب موهوب، وحجز مكانا بين عظماء الأدب. كنت كاتبا موهوبا، الآن لا أستطيع كتابة جملة واحدة جيدة. أمسكت الرواية الأولى، أعيد قراءة مقدمة الكتاب، لمعرفة مصير زوجته الجميلة، ماتت زوجته بعد وفاته بعام واحد، أصابها اختناق وهي تحرق أوراق زوجها، ماتت بسبب أوراق ممتلئة بأشعار كتبت لأجلها!

* * *

6

بلا مواعيد مسبقة، كنا نتلاقى على مقهى صغير، في شارع، كعادتي لا أعرف اسمه، لكنه شارع مزدحم، يحتضن على إحدى نواصيه، مقهى سيئ التهوية.

أجده جالسا، يكتب وأحيانا يقرأ، يرحب بمجيئي، كأنه ينتظر أي شخص، يجلس معه، يقطع أفكاره، يبادله الأحاديث، نتلاقى كل أسبوع تقريبا لنتحدث. وأحيانا نرى بعضا كثيرا، في شارع شامبليون، كل منا مع أصدقائه، نتبادل تحيات بسيطة، بإيماءة بالرأس، صداقتنا مقتصرة على المقهى سيئ التهوية، ذي النافذة الوحيدة والقهوجي العجوز، الساخط دائما على الزبائن.

فى أحد الأسابيع، لم أره، يوم الاثنين كالعادة، وجدت المقعد فارغا، عدت ثاني يوم، وهكذا لمدة ثلاثة أسابيع كاملة، أعود يوميا على أمل لقائه، وفي كل مرة أسأل القهوجي عنه، ربما ترك المقهى ورحل لمكان آخر أكثر خصوصية.

تعجبت من صبري على العودة كل يوم، الساعة الثالثة، للسؤال عنه، أفتقد أحاديثنا الأسبوعية، سخريته اللاذعة من الأوضاع، ومسحة

الكآبـة على وجهـه. لا أعرف عنـوان منزله ولا أحب أصدقـاءه، أعبر كثيرا من شـارع شامبليون وأجلس هناك أحيانا، أفتش عنه بعيني، دون جـدوى، لم نتبـادل الأرقام حتـى، تبادلنا الأسـامي ومخاوفنا وانعدام اليقين، الذي تشـبث بكل شيء. قررت سلوك الطريق الأسهل وسؤال أصدقائه عنه، وتحمل مشـقة الحديث معهـم، قابلت فتاة منهم، مرت بجواري، استوقفتها، قرب ميدان طلعت حرب، وسألتها عن حسن.

عُثـر عليه ميتا، قبل ثلاثة أسـابيع، داخل شـقته المسـتأجرة في بين السـرايات، غارقا في دماء شـرايينه المقطوعة، رفيقه في السـكن، عاد متأخرا، ليجده منتحرا، مازال صديقه هذا، كما أخبرتني الفتاة، يرتعش حتى الآن، قالت:

-رحل هكذا!

حركت يديها، في الهواء بحركة غريبة، فتاة قصيرة، بيضاء، شعرها مقصوص، تشـبه الأولاد مع لمحة أنوثة، ترفع شـعرها لأعلى، بقطعة قماش سـوداء، ، ترتدي تي شيرت مكتوبا عليه كلمات مبهمة وبنطالا أسـود، كنت أركز على كل شيء، عدا حديثها، لكتمان دموعي، لكنني سـمعته كاملا، رحلـت، واتجهت أنا للمقهى، ربمـا موته مجرد مزحة قاسـية، وأجـده هنـاك، جالسـا، ينكب على قـراءة روايـة قديمة، ذات أوراق صفـراء، لكاتـب مجهـول، أو يتبـادل الأحاديـث الصغيرة مع رواد المقهـى مـن الموظفين وأصحاب المعاشـات، يخبرهم بلغتهم، أن الوطـن في طريقـه للفناء، عاجلا أو آجلا، سـأفتقد ما حييت، عينيه

المرهقتين الصادقتين، وتعبيراته وبداخلي أحتفظ بأسراره، وستذهب معي للقبر، كما فعل هو معي.

اكتسب الموت حيزا جديدا في حياتي المليئة بالانتصارات الصغيرة والهزائم الكبرى.

تماسكت ومشيت للمقهى واجما، ساهما، أتذكر أنني أشعلت سيجارة من الفلتر وكاد شعري يحترق، وظللت طوال الطريق، أتخبط في الناس، وصلت للمقهى المنزوي، في ازدحام لا ينتهي، صعدت الدرجات الثلاث، وجدت ركنه فارغا، جلست، وشعرت بضيق تنفس، وبدأت يدي اليسرى ترتعش، طلبت شايا وعندما جاء القهوجي، قال:

- أين صديقك؟ ذهب لمقهى آخر؟

قلت وأنا أضع السكر في الشاي، وتتناثر حبيبات السكر، على الطاولة:

- مات من ثلاثة أسابيع..

تراجع القهوجي خطوة للخلف وقال:

- لا إله إلا الله، البقاء لله وحده.

وتحول وجهه الساخط، لوجه مرهق حزين في ثوانٍ معدودة وقال:

- ماذا حصل؟

قلت:

- حادث سيارة.

هز رأسه آسفا، شعرت بصدق حزنه، وعاد لعمله، للوجه الساخط، وتمتمة كلمات يهين بها زبائنه دون أن يسمعه أحد.

الموت لا يختارنا دائما، نختاره نحن أحيانا، نندفع إليه. لم أستمع للرسائل الخفية، التي أرسلها بين كلماته، هناك عدة طرق للاستماع للآخرين، إحداها الموت، يموت المرء، لنبدأ في الاستماع إليه، تكون آذاننا صاغية أخيرا حين لا يصبح موجودا، يخلو مكانه في الحياة، حيز ضيق كان يشغله، غرفته وعمله، أماكنه المفضلة، ويبقى موجودا في حياتنا فقط، بداخلنا، أصدقاءه وأهله، أو شخصا جلس معه على المقهى يوما، وتبادلا أحاديث غير مهمة، وعرف بنبأ موته. والحيز الضيق بداخلنا، بعد وفاته، يزداد اتساعا، نتذكر كل أحاديثه وحركاته، ونكتشف ما بين السطور في أحاديثه، إشارات الرحيل الخفية، وأحزانا لم نهتم بها، كأنها من طبائع الأمور، أن يشعر الإنسان بالحزن واليأس ويشعر أنه مسئول عما حدث، وهُزم في معارك غير عادلة، ظنا منه أنها الهزيمة الأخيرة، والنصر ممكن فقط داخل خيالنا الواسع، هناك ننتصر دائما وفي الحياة الواقعية، هزيمة تلو الأخرى، أتذكر أحاديثه، هزائمه، التي تشبه هزائمي، ودفعته للموت، وتتركني واقفا في مكاني.

ازداد وجوده اتساعا بداخلي، ازداد اتساعا، لأيام وشهور ثم يخفت الحزن رويدا ويختفي، أخيرا، تاركا خلفه حزنا عابرا، يظهر ويختفي على فترات متباعدة.

تجارب عدة، جعلتني ما أنا عليه، في وقت قصير، تجارب تحتاج عمرا كاملا.

أتمنى أن تكون هلوسات مدحت وإرهاصات وحدته، حقيقية وينعم صديقي في حياته القادمة، بالسلام والراحة، ومدينة لا تعلق له، في كل ركن منها، مشانق اليأس.

***

الفصل السابع

تلقيت مكاملة من سعاد، تخبرني بقدومها الليلة، ستتأجل رحلات الماضي ليوم واحد، بعدما أغلقت الهاتف معها، تذكرت موعدنا الأول، سعاد هي النجوم المضيئة في سماء حياتي المعتمة.

قرب منزلي بعدة شوارع، ذهبت لحضور ندوة لشاعر مغمور، قراؤه قلائل، الندوة في مقر جريدة صغيرة، تفتح مقرها للندوات الصغيرة، وقراءات الشعر، للكُتاب المغمورين، رأيتها واقفة داخل الغرفة، تستند على الحائط وتنظر للمقاعد الخالية، وصلت في الميعاد، لا يوجد أحد سواها، في ندوات الشعر تظن دائما أنك وصلت باكرا، ندوات لا يحضرها سوى أشخاص قلائل إن كنت شاعرا لا أصدقاء له سوى القلم وعدد من القراء المخلصين، أشعلت سيجارة ووقفت بجوار باب الغرفة، وأمامي المقاعد الخالية والمنصة الصغيرة، جو الغرفة خانق. التفتت عندما بدأ دخان سيجارتي يمنح الغرفة ضبابا رقيقا، قالت:

- أخيرا بعض الرفقة.

ارتبكت، لا أتحدث مع الغرباء، وخصوصا النساء، شجاعتي معهن حتى في الأحاديث العابرة الصغيرة، شبه معدومة، قلت متسائلا:

- لم يأت أحد؟

حقيقة، أنا ملك العالم في الأسئلة السخيفة، بالطبع لم يأت سوانا أحد، قالت هي مبتسمة:

- ماذا ترى؟

شعرها ملموم للخلف، وجه أبيض جميل وشفتان صغيرتان، وحاجبان رفيعين، حاولت معرفة لون عينيها، لا أقوى للنظر إليها مباشرة، حل الصمت الثقيل مرة أخرى، حتى قطعته هي:

- شاعر لا يعرفه أحد.

قلت:

- على الأقل نحن نعرفه.

- أحب له بعض القصائد، وأحب أكثر طريقته في إلقاء الشعر، أول مرة تحضر ندوة له؟

- نعم وربما الأخيرة.

ابتسمت، كأنها تنتهز كل الفرص المتاحة لتبتسم وقالت:

- القدوم إلى هنا مغامرة، الأجواء خانقة.

- نعم، كأننا مخلصون لكل كتاباته.

جاء الشاعر، ذهب للمنصة الصغيرة رأسا، كأنه يخجل منا، خيبة أمل ارتسمت على وجهه المجعد، رجل خمسيني، ترك حياته ليركض خلف أحلامه في الكتابة، هكذا بدأ حديثه المتلعثم، لنا وحدنا، جلسنا متجاورين، نستمع، بعدها جاء ثلاثة أشخاص، أصبحنا خمسة، وخارج الغرفة، تدور أحاديث متقطعة عن الصحافة، أحيانا يصل إلينا

صوتهم واضحا، ليرتبك الشاعر أثناء إلقائه القصائد ويتوقف لثوانٍ ويعاود القراءة من ديوانه الأخير. أحاول التوقف عن هز قدمي، متوتر بشدة، الجلوس بجانب امرأة جميلة، لا أعتاده، أحاول التركيز على الأبيات، صوت الرجل في الإلقاء رائع بحق، كما قالت هي. بعد مرور حوالى ثلث الساعة، سمعنا صوت تنهيدات رجل نائم، تنهيدات بأصوات مسموعة، أنفاسه ثقيلة، فيما آخر، يدخل في غفوات صغيرة، والشخص الثالث غادر مع الأبيات الأولى، موقف مأساوي يعانيه الرجل الجالس على المنصة، تعاطفت معه، وتجلس الجميلة بجانبي بهدوء، لا تتحرك، تنظر صوب المنصة، أظن أنها تحاول طمأنة الشاعر المغمور، لك قراء مخلصون مثلنا، توقف الرجل فجأة وقال:

- أنا سعيد لوجود فائدة مني، حتى لو كانت مساعدة شخص على النوم بكل هذا العمق.

وضحك بعصبية، ومسح العرق عن جبينه، وغادر.

خرجنا سويا من الجريدة، قررنا الذهاب لمقهى يطل على النيل، قرب ماسبيرو، عرضت عليّ وأنا وافقت بإيماءة من رأسي، تمشينا حتى المكان، قيظ أغسطس لا يرحم أحدا، جلست أمامها مرتبكا، وتحدثنا عن الشاعر المغمور وما حدث، كانت تشعر بالأسى تجاهه، أرادت مواساته، قبل أن أقاطعها أنا، متظاهرا بالشجاعة، لأسألها:

- ما اسمك؟.

- سعاد.

- وأنت؟

- مدحت.

- تشرفت بلقائك وشكرا لقدومك معي.

- هذا من دواعي سروري.

أحتاج للشجاعة لأسأل امرأة جميلة عن اسمها، ولاستجماع قواي في كل مرة، أجاوبها عن سؤال تطرحه عليّ.

قبل وجود سعاد في حياتي، كنت أجلس في منزلي، أراقب الأيام تمر ببطئها المعهود، أنظر للعالم الخارجي عبر فتحات النافذة وعبر مئات الكتب، أشتريها كتلة واحدة، حتى لا أضطر للخروج كثيرا، ومرة كل شهر أو شهرين أذهب للسينما وحيدا، أعرج على بعض أقاربي كل عدة شهور، يتفاجأ الجميع بوجودي حيا، أعيش داخل قوقعة منسية، عندما أخرج من المنزل ويقابلني أحد الجيران على سلم العمارة، يحدق فيّ لثوانٍ، يتذكرني وتمر دهشته، يلقي السلام ويغادر.

أحبها حين تتمدد عارية بجانبي وتدخن، أحبها طوال الوقت، علمتها التدخين، تدخن أثناء وجودنا معا فقط، وعلمتني هي حب الحياة قليلا، بعد مرور سنة وأكثر على علاقتنا، مازلت أرتبك في وجودها، وأركع أمامها في كل مرة أراها عارية، كأن جسدها خرج من

خيال رجل حالم يبحث عن الكمال في جسد الأنثى، كأنها خرجت من خيالي أنا. اليوم طلبت من الزائر الغريب مغادرة المنزل، عرف هو ما يدور في بالي، وغادر بخفته من خلال الحائط، ومازلت متوجسا من مراقبته لنا، لكنه منحني وعدا بالمغادرة، أخرجتني سعاد من أفكاري:

- لماذا لم تتصل طوال الفترة الماضية؟

- أربعة أيام ليست فترة طويلة.

مالت برأسها وقبلتني في فمي، وقالت:

-اشتقت إليك.

احتضنتها بيدي وقربتها من صدري، تبادلنا قبلات طويلة، يلامس نهداها جسدي، أشعر بهما، باهتزازهما البسيط، ألقيت السيجارة ولاطفتهما بيدي، ابتعدت سعاد قليلا عن فمي، وأزاحت يدي عن نهديها وقالت:

- كم عمرك؟

- نعم؟

- نحن في علاقة منذ سنة ولم أسألك يوما عن عمرك؟

- أذلك شيء مهم؟

- نعم.

قلت:

- عمري ألف عام.

- تحسب عمرك بالدقائق؟

- لا، بعدد السجائر التي دخنتها، والأوقات التي مرت وكنت فيها وحيدا.

اقتربت مني وقبلتني وقالت:

- تستخدم جملا مبتذلة ثم أنت لم تعد وحيدا الآن، قل عمرك؟

- ثلاثين سنة.

- تبدو أصغر!

- لا يهم، صدقيني.

لم أخبرها أن الزائر الغريب، يخبرني أن عمري من عمر الكون.

قامت وتحركت باتجاه النافذة، تبعتها بعلبة السجائر، وقفنا سويا نراقب الشارع من الفتحات الصغيرة، ولّعنا سجائر، ضوء أصفر باهت، وعدد قليل من المارة، عالم صغير نراقبه، حينها أردت رسم سعاد عارية وهي تراقب الشارع.

* * *

7

قادني الفضول للمقهى الأول الذي قابلت فيه السمسار، الكائن على أول الشارع من الجهة الأخرى، أسكن في شارع طويل، وأنا في منتصفه. أردت رؤية السمسار، وسؤاله عن سعاد، المرأة التي كانت تزور مدحت على حد قوله، أين يقع بيتها، فكرت في شراء أي شيء مستعمل منه، ربما مروحة صغيرة تصدر طنينا مزعجا أكثر مما تصدر الهواء. أي شيء أعرف به سعاد، أراها الآن كيف تبدو وأتمنى التقرب منها وسؤالها عن مدحت، وتوجست كلما فكرت أنها قد تكون ماتت. السمسار جالس في مكانه يدخن الشيشة ومازال صوت السيدة أم كلثوم يخرج من مكان ما في المقهى، كنا وقت العصر والمقهى شبه خالٍ، تبادلت مع السمسار السلام وبعض الأحاديث الروتينية، وجلست بجانبه أفكر في مدخل لبدء حديثي عن سعاد، قلت بنفاد صبر غريب:

- سعاد المرأة التي كانت تأتي لبيت مدحت، صاحب منزلي الأول، مازالت حية؟

امتعض الرجل لسؤالي، وتململ في جلسته، وقال:

- ظننتك قادما لشراء ثلاجة أو غسالة!

وقهقه باصطناع مثير للغثيان، قلت:

- المرة القادمة سأشتري.

- لماذا يشغلك الأموات؟

انقبض قلبي، دون سبب محدد، لكلمة الأموات، تمنيت بقاءها حية، أريد رؤيتها والحديث معها، وربما الانقباض لسبب آخر، لا أعرف، عاد ليقول:

- انتظر وسأجعلك تعرف ما تريد.

صفق الرجل بيديه، جاء القهوجي، طلبت شايا، وقال له السمسار:

- أريد عبد ربه في موضوع!

بعد قليل، جاء الشاي ويحمله رجل غير القهوجي، رجل كهل، يرتدي جلابية ويتصبب وجهه بالعرق، وضع الشاي على الطاولة، طاولة تفصلني عن السمسار وأحضر الرجل كرسيا وجلس قبالتنا، طلب مني سيجارة، وقال موجها حديثه للسمسار:

- أؤمر!

- يريد الرجل سؤالك عن مواضيع حدثت هنا في الشارع. ثم التفت السمسار إليّ وقال:

- عبد ربه موسوعة شارعنا.

مسح عبد ربه العرق بكم الجلابية، وأشعل السيجارة، وانتظر مبادرتي للسؤال عما أريد، سألته عن السيدة التي كانت تزور مدحت، الإنسان الوحيد الذي أتى لزيارته ربما طوال فترة وجوده في الشقة، قال عبد ربه:

- الست سعاد، تعيش في نهاية الشارع.

قلت:

- مازالت حية؟

- ربنا يديها طول العمر.

وحكى الرجل بتلقائية، أن سعاد تزوجت عدة مرات وكل زيجة لا تستمر أكثر من سنة وتنتهي بالطلاق، وقال:

- كانت تحب الشاب الغريب الذي يقطن هنا في منتصف الشارع، هكذا يقول الناس.

أنهى السيجارة سريعا، وطلب واحدة أخرى، وقال:

- شاب غريب، كنا نراه يجلس في الشرفة يكلم نفسه.

قلت:

- أين تعيش سعاد بالضبط؟

في الطريق للمنزل، أرى دائما، امرأة عجوزا، تجلس في شرفة منزلها، منزل في الدور الأول، له شرفة صغيرة، أرضيتها خشب، وسورها حديد، يشبه القضبان، ترتفع قليلا عن الشارع، أمر من أمامها، شعرها الأبيض يصل إلى كتفيها، وظهرها محني للأمام، ترتدي فساتين تصل إلى ركبتيها المجعدتين، وعينين غائرتين، بصمة الزمن الأبدية، وجه مازال يحتفظ بنضارة سنوات الصبا، هكذا خيل لي كلما أراها، في مرة كانت تسير أمامي، تمشي بتثاقل، مررت بجانبها، رائحتها بدت مألوفة، كأن رائحة خاصة تنبعث من جسدها، رائحة معتاد عليها، وداهمتني ذكرى ما، لم أستطع اللحاق بها، ذكرى صغيرة عابرة، وكلما تذكرت رائحة المرأة العجوز، ينتابني الحنين لشيء لا أعرفه. وصف القهوجي بيت هذه المرأة، كانت سعاد.

***

الفصل الثامن

بعد رحيل سعاد في الليلة ذاتها، قال الزائر الغريب:

- أتعرف عندما تموت، إذا بكت سعاد عليك، ستمطر هذه المدينة لثلاثة أيام متتالية.

- لماذا؟

- لا أعرف، لكنها ستمطر، تكريما لكل الدموع التي أهدرت على الموتى، أنت وغيرك.

صمت، بدأ يعود للدندنة على الطاولة، قلت:

- هل سأموت قريبا؟

- أنت كل أفكارك تتمحور حول الموت، تبدو قريبا منه، لماذا تريد الموت؟

- لأنني على ما يبدو، لن أستطيع الخروج من متاهة وحدتي وشقائي الخاص، وقع الموت عليّ أفضل من هذه الحوائط.

عدت للقول:

-هل مازالت المعجزات تحدث؟ تمطر ثلاثة أيام لأجل دموع امرأة؟

قال الزائر الغريب، وهو يدور حولي:

-المعجزات دائمة الحدوث، لكن البشر مشغولون بنفيها أكثر من رؤيتها.

* * *

8

شدت أمي على يدي، جفناها نصف مسدلين، أجلس على ركبتي، بجوار السرير، شديد القرب من رأسها، أخواتي وبعض أقاربي يشكلون دائرة حول السرير، يبكي بعضهم بصمت يعلمون أنها لحظاتها الأخيرة في الحياة، الجميع يعلم إلا أنا لأنني لا أريد التصديق، وأضرب بكلمات الدكتور عُرض الحائط، أتشبث دائما بالأمل الضعيف، ستنهض أمي وتصيح في وجه أخواتي، وعندما أخطئ، تقذفني بالشبشب. في إجازتي الماضية هنا، تفاديت شبشبها مرات، لأخطائي، أحب أنها مازالت تعاملني كطفل، طفلها الصغير، لن يكبر في وجودها أبدا. العالم الخارجي، يعاملني كرجل، لا تُغفر أخطاؤه، أمي تغفر سريعا، وتعرف أن الإنسان دائم الخطأ، العالم لا يغفر ولا ينسى، أمي تنسى سريعا.

في الصباح وقبل وصولي، تحدث أبي معها عبر الهاتف، ليطمئنها. طلبت رؤيته، تفصله عنها مئات الأميال وعشرات المدن وملايين البشر، والصوت لا يبدد شوقا ولا يطمئن أحدا، حضوره مستحيل كما طلبت، سبب آخر يبعدني عن أبي، البعيد منذ زمن.

قالت بحروف متقطعة، لشدة مرضها:

- الكلية؟

قلت إنني نجحت، كذبة أخيرة، وداع أحمق، أغمضت عينيها لدقائق، أراقب صدرها، يعلو ويهبط، أطمئن لبقائها على قيد الحياة، الشمس راحلة، تودعنا، وداعها القصير، أمي سترحل، وداع طويل دون أمل للقاء قريب أو بعيد، الضوء الأصفر الباهت، يزين الغرفة، ضوء الغروب، أصوات الحيوانات على سطح المنزل، تطلب طعامها، أود الصعود لأطعمها، لأقف مكان أمي وهي ترش الحبوب بنظام دقيق، ليأكل الجميع، أمي تشد على يدي، فتحت عينيها ثانية، نظرت للسقف ولأخواتي، رأت دموعهم، مالت برأسها لتواجهني، نظرت في عينيها المرهقتين وقالت:

- لا تنس رمي القمامة، ارمها بعيدا عن البيت.

ظننت أننا عدنا بالزمن، هلوسات اللحظات الأخيرة، أريد تدخين سيجارة، لا أستطيع أمامها، أخشاها حتى في أوقات ضعفها، ولن أترك يديها، أغمضت عينيها، توقف صدرها عن الحركة، الدكتور الشاب الواقف بجوار باب الغرفة، جاء مسرعا، عندما ناديته بصوت مرتعش، جس نبضها، قال إنها ماتت، عرفت ذلك، عندما أرخت يديها عن يدي، رحلت، أصوات الجميع تتصاعد في همهمات حزينة متداخلة، خرجت من الغرفة، أشعلت سيجارة وصعدت للسطح، الحيوانات تصيح، يريدون الطعام، أطعمتهم فيما جثمان أمي بالأسفل، لا تدرك

الحيوانات الأمر، لا تدرك المأساة ولا تفهم دموعي، التي تسيل ببطء، لن تحب أمي أن تبقى الحيوانات بلا طعام، والجميع يجلس بجانبها يبكي بلا حراك.

رششت الحبوب وغيرت الماء، والشمس تلقي وداعها لهذا اليوم، يزداد عدد البيوت، قبلا، عندما أتيت هنا للمرة الأولى، كانت المساحات الزراعية كبيرة، أراضٍ خضراء منبسطة، هواء عليل، بيوت متناثرة، يزداد عدد البيوت وتتقلص الأراضي الزراعية، ينهزم الجمال أمام القبح، إنها بلا شك، أزهى عصور القبح، بيوت عالية، أبراج بنيت في عجالة، تثير مناظرها الغثيان. أحب التفكير أن أمي رحلت مع الشمس، ستعود الشمس كل يوم وأمي لا. عرفت وقتها أنني صرت رجلا، وأخطائي ستظل وصمة في جبيني، لن تمر، أمي كانت تسامحني سريعا، أسرع من تسرب إحساس الحزن بداخلها. كل مرة أفكر في أمي بصيغة الماضي، أحزن، صارت أمي ماضيا، ماضيا جميلا، وعندما أرى الضوء الباهت، لحظة غروب الشمس، أتذكرها، يوم مالت برأسها ونظرت في عيني.

* * *

الفصل التاسع

انتهيت من رسم ليلى والسمكة، وأخيرا الكاتب المكسيكي، ببدلته الوحيدة، بدلة زفافه، رسمت عيونهم، عبر النظر لنفسي في المرآة، يملكون جميعا عيني.

وضعت اللوحات متجاورة، نظرت للساعة، الحادية عشرة والنصف، سيأتي الزائر الغريب، لنرحل سويا، في رحلة من الماضي، الماضي الموغل في القدم. قلت عندما جاء للغرفة:

-إلى أين سنذهب اليوم؟

-لا أعرف!

-نخوض الرحلة بترتيب زمني معين؟

قال:

-لا، نعود فقط، الموضوع يعود للصدفة، قد نعود لمائة عام في الزمن وقد نعود لأربعين عاما، لا يوجد ترتيب، في النهاية لا نحتاج للترتيب.

ورحلنا.

يوميا بعد الساعة العاشرة مساء حتى بوادر الصباح الأولى، يراقب الحاكم من شرفته في القصر الرئاسي، آلاف الأشباح، تتجول في حدائق القصر الفسيح، قصر فخم، مترامي الأطراف، قبل

بنائه بقليل، دهست الجرافات، بأوامر من الحاكم شخصيا، عشرات البيوت وأزالت في ساعات قليلة ما بناه الناس خلال عشرات السنين، منازل بأدوار واحدة، وحدائق خلفية صغيرة تُزرع فيها الورود، بجانب الذكريات التي اندثرت، وبعض الأشخاص فضلوا الموت تحت أنقاض منازلهم رفقة أولادهم، مازال الحاكم رغم مرور السنوات الطويلة، يتذكر صياح أصحاب المنازل، صياحا أجوف غير مفهوم، كان يراقب عملية الهدم بنفسه وهو جالس تحت مظلة كبيرة، صنعت خصيصا لعملية الهدم، ليجلس مسترخيا ويراقب العمال، ويعاقب بنفسه المتراخي في عمله، يرى أن الحاكم يستحق قصرا يليق به، قصرا يتجول بداخله بحرية تامة، حين يحب إصدار قرارات مصيرية أو توقيع اتفاقيات مع مدن أخرى، أو حتى وقت إعلان الحرب، على أعداء غير موجودين بالأساس، لكنه يحارب الجميع، ويتذكر الآن تجميع الجيش وأخذ الرجال من منازلهم، لتكوين صفوف كبيرة من الرجال، تحميه من الهواء الساخن، القادم من الجبال الشرقية، يكره الهواء الساخن والصيف والغليون، يحب السجائر العادية ومراقبة المدينة من شرفة قصره الواسعة.

أصبحت حدائق القصر، بممراتها الصغيرة، منزل آلاف الأشباح، تتجول فيها بحرية، تحمل لافتات بيضاء كلماتها ممحوة، وتسير ذهابا وجيئة، بأجساد محنية، ترتدي الملابس ذاتها، وقت مقتلهم، جميعهم قُتلوا، هكذا كان يخمن الحاكم، غير متأكد بعد مِن قتله لكل هؤلاء

الناس، عبر سنوات حكمه الطويلة، فمازالت المدينة مكتظة بالسكان، ويشك في وجود بعض الأشباح الدخيلة، تأتي للقصر لمجرد التمشية بدلا من السكون الأبدي في أماكن يعلم الله وحده أين تُوجد، تحولت شرفة القصر الرئاسي، لمكان مراقبة الأشباح، بعدما كانت في الأزمنة القريبة والبعيدة، مكانا لإطلاق الخطابات الحالمة، والوعود التي لا يحققها، لكنه أحب دائما رؤية سعادة الجماهير وقت سماعهم للوعود، منازل أفضل، عدالة، بناء مصانع، مطاردة الفاسدين، ظل طوال فترة حكمه يطلق الوعود والأحلام، يملك خيالا واسعا.

يريد النوم خلال الليل، لم ينم في النهار قبلا، وعندما حاول، ظل يتقلب على السرير طوال ساعات، يفكر في سبل لقتل الأشباح، لمطاردتها خارج قصره، وفي المساء، يسمع بوضوح أصواتها التي تؤرق منامه، أصواتا مزعجة، مبهمة، حاول مرارا معرفة ما يقولونه، لكنه فشل، مجرد همهمات مزعجة، لا يسمعها أحد غيره، ولا يرى الأشباح أحد سواه، لكن الجميع آمن بوجود الأشباح، حتى هؤلاء الرافضين لفكرة وجود الرب والأشباح، خوفا من بطش الحاكم.

أحضر الحاكم رجل دين عجوزا، يبلغ عمره مئة وخمسين عاما، لا يغادر معبد الرب إلا نادرا ويستطيع أحيانا التواصل مع الموتى في العالم الآخر، هكذا تحدث أتباع الحاكم عن الرجل العجوز، حكى الحاكم القصة للرجل العجوز، بكل تفاصيلها، ورغبته في النوم ولو ساعات قليلة في الليل، لم ينم منذ أسابيع، قال الرجل العجوز،

بصوت ضعيف:

- أشعل الشموع سيدي الحاكم. لأجل أرواحهم المعذبة، ليذهبوا في سلام.

امتعض الحاكم وظهر هـذا جليا على وجهه النحيف، ودب قدميه في الأرض، مـازال يـدب قدميه فـي الأرض، لم يتخلـص من جميع عادات الطفولة، ومازال يحتفظ في داخل خزانته وسط أوراقه المهمة، بمجموعـة مـن ألعـاب الطفولة. وقـف الرجل العجوز، وبـدأ يرتعش خوفا، راقبه الحاكم بنفاد صبر وقال:

- لكنهم أعداء الوطن، وأنت تعرف ذلك أيها العجوز.

لـم يجب العجـوز وأمر الحاكم برحيله، وأيضـا، رغم عدم اقتناعه بمنـح الراحـة والسـلام للأعداء، أمـر بإحضار شـمع يكفـي الحديقة الواسـعة، وأمر بإشـعال الشـموع في كل بيـوت المدينـة، وخصوصا الأسـطح، ليراهـا جيدا من شـرفته ويتأكد أن الجميع يشـعل الشـموع لأجـل الرجل الذي أضاع عمره في خدمة الوطن بدون أي مكاسـب، سـوى مضاجعة مئات النسـاء رغم أنوف أزواجهن، وبناء منزل بشرفة واسعة ليسهر من شرفته على راحة الشعب، تذكر وسط كل هذا، بعض الجميلات اللائي مررن على قصره، وابتسـم لليالي الغابرة، ابتسـامته الأولى منذ بدء أزمة الأشباح.

وفي المسـاء، شاهد بنفسه، وجود الشموع في كل أركان الحديقة، وبجانب كل شـمعة، رجل يشـعلها إذا انطفأت، وراقب جميع أسطح

المدينة، مضاءة، بالأضواء الباهتة الصغيرة، ورغم آلاف الشموع، جاءت الأشباح في المساء ذاته غير آبهة بالشموع، ليدب بقدميه عدة مرات حتى آلمته قدماه.

وفي الصباح التالي، لأول مرة في حياته، أخذ الحاكم منومًا، ولم يترك المنوم أي أثر على مسار يومه، ظل مستيقظا وأحيانا يهذي، ويصدر أوامر غير ممكنة التحقيق، كإعلان الحرب على الأسماك التي تعيش في المحيط القريب، خلف الجبال العالية، لأنه أكل سمكة في صغره، سببت له مغصا امتد لثلاثة أيام.

في اليوم الخامس والأربعين، وخلال نوبات الهذيان الطويلة في ساعات الصباح، أصدر أمرا واجب التنفيذ بنصب رشاشات ثقيلة في الحديقة، وقتل الأشباح، برصاصات مطلية بالفضة وبالذهب والرصاص، وأيضا أحضر بعض الخطاطين، ليكتبوا على الرصاص صلوات قد تمنحه الراحة. وفي المساء شاهد حديقته الجميلة التي عاش سنوات يعتني بها وقتل، في سبيلها ذات مرة، موظفا دهس بالخطأ وردة، أثناء دخوله للقصر، ومن فتحة صغيرة في القصر، أمر الحاكم بإطلاق النار، وقتما رأى أول الأشباح تظهر في الحديقة، وراقب من الفتحة الصغيرة، زوال حديقته بالرصاص المتطاير، وتناثرت الورود، وسقطت بعض الأشجار جراء شدة الرصاص، لم يعد لحديقته وجود، وبقيت الأشباح على حالها، بالحركة البطيئة والهمهمات المزعجة التي تجعل النوم فكرة شديدة الاستحالة، وقف الحاكم في الشرفة، يحمل ورقة وقلما ومسدسه الخاص، ليسطر على الأوراق،

بيان هزيمته الأولى، رغبة منه في إسكات صخب الأشباح وتجوالهم الليلي، لعله ينعم بالسلام الأبدي، ويمنح هؤلاء الذين قتلهم خلال سنوات حكمه، شرف النصر عليه، نظر لحديقته للمرة الأخيرة حزينا، ما حل بها لا يمكن إصلاحه إلا بسنوات طويلة أخرى لم يعد يملكها، لقد وقَّع أخيرا على بيان هزيمته، الذي كتبه بنفسه، على غير العادة، دون احتياج لكاتب ما، ووضع المسدس في فمه وأطلق النار.

عدنا لغرفة المكتب، في الثانية عشرة، لا نتأخر دقيقة واحدة. مذعورا مما رأيت، قلت للزائر الغريب:

-لقد كنت يوما ديكتاتورا ؟!

قال ضاحكا، مبينا فمه الخالي من الأسنان، كأنه يحب رؤية لحظات ذعري:

-نعم.

قلت:

-كنت في يوم أسوأ مخاوفي. ديكتاتورا! هذا شنيع.

وقررت رسم الديكتاتور، شرعت في الرسم، بعد دقائق من عودتنا. كيف أمنح ديكتاتورا، أقام مجده على أنقاض الآخرين، عينا تشبه عيني؟

قررت رسمه بلا عينين، فجوتان سوداوان فقط، لشخص ذي شعر أبيض، صدره مغطى بالنياشين.

* * *

9

أحيانا، أخشى وضع رأسي على الوسادة، خوفا من ألا أستيقظ أبدا. أوقات كثيرة، تنتابني، لحظات هلع، لفكرة وجود مرض ينبش في جسدي، وأنا لا أدري، وسأكتشفه بالصدفة. وأياما، أريد الاستلقاء على السرير، لأنام للأبد، لا ينتظرني شيء هنا، أحب فتاة، قد تتركني في أي وقت، لسبب تافه، وأصدقاء لا أشعر بوجودهم، وأحيانا أعتبرهم عبئًا على حياتي، مع أن حياتي لا يميزها شيء، كل الأشخاص، حتى سارة، على هامش حياتي وأنا على هامش الحياة، أفتقد للإيمان المطلق بكل شيء: الإله والأصدقاء والدين والحب. أفتقد أمي، وصديقي من قرر الرحيل في صمت، اعتبرته صديقا مقربا بعد رحيله، وأفتقد رفاق المظاهرات، أوقات الأمل، وسرد الأحلام بلا خوف من سخرية الآخرين، الأحلام في وقتنا الحالي تدعو للسخرية، لا أعرف متى توقفت عن خوض التجارب خوفا من نتائجها؟

خمس سنوات كافية لأكون ما أنا عليه، وما أنا؟ لا أدري، تربطني بعض الأشياء بالحياة، أحدها سارة، لكنه خيط رفيع، ربما ينقطع في

أي وقـت، قراءة مذكرات مدحت جعلتني خائفـا، أن تدفعني وحدتي للجنـون، ربما عليّ الاتصال بأبي، أخبره أنني أحتاجه، لا أحتاج ماله، وجوده قد يعوض رحيل أمي، لا أشـعر به، يتصل ليسـمعني وابلا من الشتائم والمواعظ، هذا دوره في الحياة، بجانب الكتابة، لديّ هوايات أخرى، مثل المشي بلا هدف في شوارع القاهرة، للتفكير، أفكر طوال الوقـت، بلا توقـف، إلا عندما أقرأ، وأنقطع عن القـراءة لأيام، جاءت مذكـرات مدحت في وقتها، شـيء يشـغلني، وسـعاد، المـرأة صاحبة الرائحة المميزة، العارية في اللوحات، قالت سارة:

- بماذا تفكر؟

- لا شيء.

- تبدو كأنك سارح في الملكوت.

ضحكنا سـويا، على أمر غير مضحك، يجب أن يضحك الإنسـان على كلمات الآخرين، حتى لو كانت غير مضحكة، قالت:

- ماذا سنفعل في مستقبلنا؟

- لا أعرف.

تصيبهـا أجوبتي بالحزن، تظن أنني أتهـرب، لكنني حقا لا أعرف، قالت:

- متى ستقلع عن التدخين؟

- قريبا.

- تقول قريبا من شهور طويلة، ومتى سأرى شقتك الجديدة؟

- لن ينفع الآن، يوجد بواب لا ينام.

صمت، نتبادل النظرات، تريد سارة كل شيء، ترتشف الشاي بصوت عالٍ، أفكر في سعاد، كيف أفتتح الكلام معها، وأنتهز الصمت، لأتساءل، ماذا حدث خلال خمس سنوات جعلني هكذا؟ موت والدتي وانتحار ثلاثة من أصدقائي، يأس يحتل كل حياتي، شيء ما مفقود، هرتلات، قلت:

- سارة، لقد نجحت أخيرا في الحصول على الفيزا.

- أي فيزا؟

- فرنسا، سأسافر لعدة أيام، للراحة.

ارتسمت علامات الغضب على وجهها وقالت:

- متى؟

- قريبا.

قالت مندهشة:

-فرنسا!

-نعم أخيرا، سأسافر للخارج!

-تبدو سعيدا للغاية!

بدت غاضبة جدا. قلت:

-أحتاج للراحة، وأخيرا أنا قادر على السفر لأوربا.

***

الفصل العاشر

قلت للزائر الغريب:

- ألا تملك أي اسم أناديك به؟

- لا، الأسماء كثيرة جدا اختر ما يناسبك!

دخلنا في نوبة صمت جديدة، تقطعها أحيانا نقراته حين يهدأ عن الدوران، ثم قال:

- أليس اليوم هو يوم مهم بالنسبة إليك؟

- لماذا؟

- ليلة رأس السنة كما تسمونها.

- أنت تعرف عنا الكثير؟!

- سؤالك غبي، طبعا أعرف!

ابتسمت لجملته الأخيرة وقلت:

-أكره هذا اليوم وأعتبره يوما عاديا.

أكره يوم رأس السنة، كما يسميه الناس، يعتبرونه بداية جديدة لحياة أفضل، سذاجة أبدية، لا توجد بدايات، الحياة مستمرة، البدايات هراء، هراء محض، عام جديد يعني القلق ذاته، الخوف من المجهول، الكآبة، القيظ في يوليو، البرد في ديسمبر، الموت كل أيام

السنة، الفقدان، الألم النفسي لرجل عجوز يعيش في النسيان، لن يتوقف مع بداية السنة الجديدة، لا شيء يتوقف، الهراء ذاته يستمر، حتى أن البيوت الآيلة للسقوط، تكتسب عاما جديدا من الشيخوخة، لتسقط على أصحابها.

مازال يدور حولي، بحركته الخفيفة، يتأمل أحيانا عناوين الكتب، يقرأها للمرة الألف تقريبا، لا يكل ولا يمل، منذ وجوده معي، لم تأت سعاد إلى الشقة، رفضت وجودها هنا، خوفا من تلصصه علينا، أقابلها في مكان قريب، يطل على النيل، أبدت هي استغرابا ممزوجا بفرحة طفولية، تنصحني دائما بالخروج للشارع، وترك منزلي الكئيب خلفي، من ضمن أحلامها، شراء منزل بعيد عن هنا، تكره منزلي.

قال الزائر الغريب:

- أريدك أن تأتي معي لزيارة صديق.

لم أفهم في البداية، ظننته يسخر مني، قلت:

- أتملك أصدقاء من البشر؟

- نعم أو قل نصف بشري.

وضحك ضحكته العظيمة، التي تجعل فمه الخالي من الأسنان يظهر واضحا أمامك، ليصيبك الخوف وأحيانا الاشمئزاز في كل مرة، قلت:

- وأين هو؟

- في جزيرة صغيرة في أوربا.

- وكيف نذهب إليه؟

- ستغمض عينيك فقط!

- فقط!

- نعم، أرأيت كم أنت محظوظ!

تمنيت دائما السفر، دون حاجة لركوب سيارة أو طائرة، أو قطار يصحبني في رحلة طويلة، لأرى أماكن رائعة لثوانٍ قليلة، فقط أغمض عيني لأصل إلى وجهتي المحددة، أحد أحلام الطفولة المقدسة، سافرت عدة مرات وأنا طفل وكرهت الانتظار في الطريق حتى الوصول، أكثر من أي شيء في حياتي، أكره الانتظار والطرق الطويلة.

أغمضت عيني وعندما فتحتهما، بعد ثانية واحدة، كنت في غرفة تحتل الكتب جميع أركانها، كأن وجود الإنسان هو الأمر الشاذ والخطأ، وأن الغرفة عالم صغير تسكنه الكتب فقط، أقف بجانب باب الغرفة المغلق، وبجانبي الزائر الغريب، وشخص آخر يقف أمام النافذة، يعطينا ظهره، تحدث الرجل دون النظر إلينا، كأنه يعرف بوجودنا مسبقا:

- منظر رائع، اقتربا.

تحركنا ووقفنا نحن الثلاثة أمام النافذة، نرى شوارع صغيرة غير ممهدة، تحددها ثلوج ديسمبر وأضواء الميلاد تزين البيوت، يقع منزل الرجل على ربوة عالية، وأمامه بيوت متناثرة وحقولها شاسعة، قال الرجل، موجها حديثه إليّ:

- اسمى أندروا، ما اسمك؟

- مدحت، أنت تتحدث العربية؟

قال الزائر الغريب:

- يتحدث كل اللغات.

يملك شعرا أبيض ولحية صغيرة بيضاء، ظهره محني للأمام قليلا، عيناه واسعتان، وقامته متوسطة الطول، يبدو رجلا حالما في الستين من عمره. قال أندروا، ومازال يوجه نظره للشوارع الصغيرة:

- تأخرت يا صديقى طويلا.

قال الزائر الغريب:

-عدت منذ أيام قليلة فقط.

- لماذا؟

- أصطحب هذا الرجل في رحلة للماضي.

جلسنا بجانب بعضنا بعضا، ثلاثة مقاعد متجاورة وسط أكوام الكتب، وبدون مقدمات بدأ أندرو يحكي:

قبل سنوات طويلة جدا، اهتزت مملكة الرب في السماء، حدث أمر غير مسبوق في الخطة التي وضعها الرب، حدث أن رفض إبليس الطاعة العمياء، تسللت إليه الصفات البشرية التي أفنت سابقا عوالم عدة، خلال اللحظات الأولى لميلاد عالمنا الحالي، أرسل الرب إبليس ليراقب البشر عن قرب.

اجتاز إبليس بوابة محطة قطارات في باريس، مدينة أنهكتها الحرب، وجوده غير الملموس منحه أفضلية العبور وسط نساء افترشن الأرض وعجائز بين اليقظة والحلم، الكل يأمل في عودة ابن أو زوج، وهناك في جميع أركان محطة القطار، ناس ينتظرون تقديم المساعدة بحمل أحد الجرحى أو مواساة امرأة خائبة الرجاء، عدد مهول من الأشخاص وهمهمات تناجي الرب، لكن إبليس وحده يعلم أن الرب لا يتدخل، يراقب فقط ما يحدث. منذ ذكرى نزوله إلى الأرض، اقتصر دور إبليس على مراقبة البشر في لحظات معينة، بذاكرة تسجل كل شيء، دون أن يكون جزءا من الوجود الإنساني، أهو عقاب الرب أو ينتظره شيء آخر لا يعلمه، بيد أن إبليس امتلك كل المشاعر الإنسانية عبر سنواته الطويلة في الأرض، كان يكره الإنسان ويحبه ويشعر نحوه بالرثاء وأحيانا يتمنى أن يحرق الرب الأرض، احتار في الكائن الذي يريد في أوقات ما أن يكونه.

تناهى إلى إبليس صوت صافرة القطار، يقترب، يطلق السائق عدة صافرات متتالية أيقظت داخل نفوس الجميع أملا كان يحتضر بمرور الوقت، توثبت نفوس الجميع وعم الصمت المكان، لا تسمع سوى صوت طفل يلاطف والدته محاولا أن يجذب انتباهها المنصب تجاه القطار القادم.

كان ذلك في شتاء 1944 حين توقف القطار العائد من قرية هجرها أهلها، داخل المحطة، قرية قريبة من ساحات القتال تشهد على تقهقر الغزاة خارج حدود فرنسا، باريس بعد تحررها أصبحت مركزا لاستقبال الجرحى العائدين من الحرب. رصيف واحد للقطار مازال يعمل داخل المحطة، على جانبي الرصيف احتشد الناس، ينظرون في الوجوه المنهكة على أمل رؤية شخص يعرفونه، وجوه تغطيها الدماء وتنطق عيونها بالذهول غير مصدقة انتهاء الحرب، بالنسبة لهم على الأقل حتى لو على حساب إصابة مزمنة أو قدم مبتورة. يشهد إبليس لحظة ظلام أخرى من بعيد، لحظة يضعه فيها الرب، يرى بوضوح امرأة تمسك صورة زوجها، تقربها من وجوه الجنود، عسى أن يتعرف عليه أحد، خائفة أن يخبرها أحد ويذكرها بأسوأ مخاوفها، أنه مات في العراء أو دفن في حفرة بلا اسم، وحيدا تطأ قبره الأقدام، تريد فقط أن يعود، يسير على ساق واحدة أو ميت داخل نعش يمكنها عندئذ أن تضع على قبره الزهور في ذكرى زواجهما. وعجوزا تخطى الستين ترك عكازه وهرول تجاه ابنه، قد رآه ينزل من القطار يستند على جذع شجرة، احتضن الأب ابنه تحت نظرات جنود غرباء عن تلك البلاد،

يُولد بداخلهم حنين قارس إلى الوطن ودفء العائلة، جنود تقع بلادهم خلف البحر أو في قرى يضفي عليها الغروب منظرا ساحرا، صرخات فرح وأحضان ووجوه تعود خائبة تتمسك بخيط أمل ضعيف يأتي مع قطار الغد، كل هذا وإبليس يتحرك بخفته يراقب ما يحدث. بدأ المطر يهطل بغزارة ورويدا بدأت المحطة تتخلى عن ضجيجها والقطار يستعد للعودة خالي الوفاض إلا من دماء على مقاعده وصور وقبعات الجنود، وأحيانا أحذية وذكريات الحرب المريرة تركها العائدون في القطار من ساحات القتال على أمل ألا تطاردهم لاحقًا. شعر إبليس بالغرابة لأنه يشم رائحة العرق والدماء وقطرات المطر تصيبه، يقف كالتمثال، كان حقا يقف على قدميه وبجانب المشاعر الإنسانية يستطيع الآن شم الروائح وتمييزها، وحيدًا على رصيف القطار، يستشعر لحظاته الأولى في الحياة، أدرك ذلك سريعًا، لقد بدأ الجزء الثاني من لعبة الرب معه. بخطوات ثقيلة تحرك تجاه القطار، ولمس بيده دما لزجا ملتصقا في الهيكل الخارجي للقطار، يستطيع اللمس والمشي، يغرق في تأملاته وذهوله، لحظات ميلاده الأولى. أفاق إبليس من صدمة كونه بشريًا على يد تربت على كتفه، يد بشرية تلامس جسده، التفت إبليس ووجد امرأة، تجابهه في الطول، قالت المرأة في حزن حقيقي:

-آسفة إن لم يعد من كنت تنتظره، لكن عليك الرحيل أو تقديم يد المساعدة في الخارج.

حاول إفهامها أنه لا ينتظر أحدا، وأنه ولد منذ لحظات.

يقف قبالة امرأة جميلة في يوم عاصف البرودة، يرتدي بالطو أسود يصل إلى ركبتيه، أزراره مقفولة، وعينان فارغتان، عاجزا عن نطق أي كلمة، لا يأتي بأي فعل سوى أنه بكى، لقد بدأ في بكاء استمر طويلا بسبب إحساس دهمه لحظتها، عرف لاحقا ماهية ذلك الإحساس، كان فقط يشعر بالبرد.

أشارت المرأة بيديها تجاه مجموعة من البيوت، وقالت:

-اقتربنا كثيرًا.. هناك يقع المنزل.

يجلس إبليس في المقعد الملاصق لها، غارقا في صدمة ميلاده، تتهادى السيارة على طريق وعر تبتلعه الشمس في النهاية، مرسلة أشعة هادئة على الحقول والمنازل المتناثرة بعدما انقشعت الغيوم وتوقف المطر، كأنها رقعة خارجة عن إطار العالم الدامي وأصوات الرصاص والاستغاثات، أحب إبليس المنظر الذي يراه لأول مرة بعيون بشرية. كانت المرأة قد قررت، بدافع الشفقة، اصطحابه إلى منزلها، بدا لها كشخص فقد ذاكرته في إحدى غارات الحرب، جاء إلى المحطة مدفوعا برغبة خفية وهي انتظار شخص لا يتذكره.

نزل إبليس من السيارة، تسحبه المرأة من يده كأنه طفل، مرتبك الخطوات، يصعد عدة درجات حتى باب البيت. ثار والد المرأة غضبًا، رفض احتضان غريب لا ينطق في منزله، خوفًا من الغزاة إذا عادوا مرة ثانية، لكنه تراجع أمام إصرار ابنته. وهكذا قضى إبليس ليلته الأولى كإنسان داخل قبو مظلم برفقة مجموعة من الأثاث القديم.

في صباح اليوم التالي، حاولت المرأة أن تثنيه عن صمته الأبدي، ت نظرات غاضبة من الأب الذي فاض به الكيل وقال:

-ربما هو أخرس!

نظر إبليس إلى المرأة وقرر أن يتكلم، لأنه لا يوجد ما يمنعه من ك، بعد تأكده أنه أصبح إنسانا:

-اسمي أندرو ولا أذكر أي شيء آخر.

فوق المدفأة على الحائط المواجه للمدخل المفضي إلى الصالون صغير، معلقة مجموعة صور في تناسق بسيط، تلتف الصور حول سورة كبيرة لوالد الفتاة يقف بجانب شخص قصير القامة وتظهر لفهما واجهة المحل«أنتيكات أندروا»، هكذا استخدم إبليس عقله أول مرة وحصل على اسم خاص به.

فتحت مارلا باب الغرفة، مما شتت انتباه أندرو وجعله ذلك توقف عن إكمال القصة، حملقت فيها العيون وهي واقفة على الباب رتدي فستانا قصيرا يكشف أسفل ساقيها المتهدلين، جاءت تطلب نه العودة لإنهاء تزيين شجرة الميلاد، لا ترانا أو تشعر بوجودنا. عدها بالقدوم بعد دقائق.

منذ ثلاث سنوات وفي أمسيات يوم الخميس يروي لأحفاده وأطفال البلدة قصصا يسطرها على أوراق قديمة صفراء، بعد تقاعده عن العمل. يحكي قصته هو، قصة عصية على التصديق، لكنه قرر

حكايتها تحت غطاء الأسطورة لمجموعة من الصغار، بدون أن يدري أحد أن شخصا يعيش وسطهم في بلدة صغيرة ويذهب إلى الكنيسة أيام الآحاد بانتظام، وعمل في المناجم ثلاثين عاما، يحمل بداخله ذاكرة الإنسانية، لحظاتها المجيدة والسيئة التي شكلت العالم وحددت وجوده كما نراه الآن.

قال الزائر الغريب:

- يوم الميلاد انتهى منذ ثلاثة أيام؟ ما الداعي لتزيين الشجرة؟

قال أندروا:

-يأتي الأولاد متأخرين من منازلهم، يعيشون في المدن. ثم توقف فجأة عن الكلام وقال:

- سأموت؟

- لا أعرف متى، لكنك إنسان ويجب أن تموت.

- جيد، أكره الخلود.

قال أندرو بعد صمت قصير:

- سأعود في حياة جديدة؟

- نعم يا صديقي، ستعود في حياة شخص اسمه أندرو أيضا، أمه شابة جميلة، تستمع إلى حكاياتك، ستسميه أندرو تيمنا بك، بعد وفاتك.

قلت:

- ما اسم هذا المكان؟

قال أندروا:

- الجزيرة؟

- نعم.

- جزيرة القديس «ألكسندر».

عدنا من فرنسا، في ثانية واحدة، من مميزات أن تصبح ملاكا يعيش
ب السماء. سألت الزائر الغريب:

-هل تحب الخلود؟

-لا أحب أو أكره.

-لكن كيف تحول أندرو لإنسان؟

-ذهب في رحلة، مثلك تماما، ولم يعد منها.

* * *

10

قلت:

- أنا أسكن في شقة مدحت!

كنت أقف قبالة الشرفة، تجلس هي، تستند على حواف الشرفة الحديدية، ترتشف قهوة الصباح، نظرت إليّ باستغراب. طوال الليلة الماضية، أبحث عن طريقة لبدء الكلام معها، كنت أتقلب في الفراش، كرجل على أعتاب الاعتراف بحبه لفتاة ما، وكل أفكاري ذهبت هباء، عندما وقفت أمامها، ولم أجد سوى جملتي البلهاء «أنا أسكن في شقة مدحت»، قالت باستغراب:

- وماذا تريد؟

- التحدث معك؟

ثم قلت سريعا، قبل أن تتحدث هي:

- رأيتك في لوحاته.

قالت:

- أمازالت اللوحات موجودة؟

- نعم، بحالة جيدة.

أردت إخبارها عن المذكرات أيضا، لا أعلم، هل كانت تدري أنه يدون نوبات جنونه، جنبا إلى جنب مع حياتهما الخاصة، فضلت الصمت، حتى قالت:

- تعال!

أشارت بيديها إلى مدخل العمارة، دخلت، صعدت أربع درجات وفتحت الباب، على ما يبدو تعيش وحيدة، دخلت صوب الشرفة، وجلست على الكرسي المقابل لها، وفي المنتصف، طاولة عليها، نسخة قديمة من كتاب الحرافيش، قلت:

- رواية رائعة، هل تقرأينها لأول مرة؟

ضحكت وقالت:

- بالطبع لا، قرأتها عدة مرات، رواية تستحق القراءة لمئات المرات.

ترتشف القهوة، وتنظر صوب الشارع، أحاول البحث عن كلمات، قالت:

- هل اشتريت الشقة؟

- لا، إيجار خمسة شهور فقط.

- أتعلم ما يقال عنها؟

- العفاريت؟

تبادلنا الضحك سويا، وعادت للقول:

- لذلك بقيت الشقة مغلقة لأعوام، بسبب طريقة موته، مدحت.

فضلت الصمت، شعرت أن نبرتها في الجملة الأخيرة، تحولت لنبرة حزينة، قطعت الصمت وقلت:

- أنا آسف لتذكيرك بالماضي.

قالت:

- ومن قال لك إنني نسيت الماضي؟ الماضي مازال يتبعني، لا يستطيع أي إنسان التخلص من ماضيه، خصوصا الذكريات السيئة.

- نعم، لديك الحق.

وهززت رأسي، قالت:

- كم عمرك؟

- 25 عاما.

- ولماذا تعتقد أن لديك الكثير من الذكريات السيئة؟ يبدو هذا ظاهرا على وجهك الآن؟

- لقد رأيت الكثير خلال خمس سنوات، وفقدت ناسا يحتاج الإنسان سنوات وسنوات ليفقدهم.

- الأشياء السيئة لا تقاس بالسنوات، لكنك تبدو صغيرا، هذا ما أقصده.

كأنني تحدثت معها مئات المرات قبلا، وصوتها معتاد على سماعه، ارتعشت لتلك الخواطر، ارتعاشة صغيرة، مرت دون أن تلاحظها، قالت:

- أمازالت الشقة على حالتها؟

- نعم، اللوحات والكتب والمقاعد والطاولات، كل شيء.

- أريد زيارتها؟ أيمكن ذلك؟

- طبعا يمكن.

- حسنا أزورك غدا في الثانية عشرة؟

- تحت أمرك.

ابتسمت، وقررت الرحيل، قالت:

- أنت تعرف طريق الخروج.

خرجت، ورأيت، في الصالة، صورة كبيرة لمدحت معلقة في المنتصف، بجانب صورها، وهي في مراحل مختلفة من حياتها، رددت الباب خلفي، وعدت للطريق، لوّحت لها، لم تكن تنتبه، حثثت الخطى، للحاق بسارة.

* * *

الفصل الحادي عشر

بعد رحلة الذهاب لأندروا، العجوز صاحب الحكايات، تأكدت أنني لا أعيش رفقة هلوسات الطفولة وأيضا أن الشيطان وهم، صنعه الناس لنسب أخطائهم إليه. نقترب من ميعاد رحلتنا التالية، جاء أبي على بالي فجأة، وهو في مكتبه يعمل غاضبا، كان أبي يعمل دائما، لينسى أمي الميتة. ماتت أمي فجأة، بلا إنذار أو مرض. عاش أبي في محاولات نسيان مرهقة، ووسط محاولاته، للتغلب على أحزان وفاة أمي، لم يأبه كثيرا لوجودنا، عشنا في النسيان.

في عامي الخامس في الحياة، ماتت أمي ذات صباح مشمس. نظرت للساعة، الحادية عشرة ونصف إلا خمس دقائق، يقف الزائر الغريب أمام لوحة الديكتاتور، قال:

-أين عيناه؟

-لن أمنح عين تشبهني، لديكتاتور!

-لكنك منحته النياشين؟

-يملكون جميعا نياشين للتفاخر.

ضحك وقال:

-كان أنت أيضا.

أترقب الدقائق للرحيل، رحلة أخرى تأخذني من التفكير في أبي. ظن أنه عاد أخيرا للوطن، يغني ويرقص، يطارد الحيوانات عبر

الغابة المتشابكة أغصانها، ويتغزل بالفتيات، وفي المساء، ينام على ظهره، قرب النار، يتأمل النقط الصغيرة المضيئة، في سماء واسعة، كالغابة، والنهر الطويل، تذكر قول أحد عجائز القبيلة، أنه إذا سار بمحاذاة النهر سيصل لنهاية الغابة، وبعد الغابة يجد مملكة الإله، يدخلها حيا، متوجا بعطف الإله، لشجاعته، بتخطي الصعاب والوحوش الكاسرة والأرواح الشريرة، الساكنة في كل أجزاء الغابة، خاض الكثير من الرجال هذه الرحلة الطويلة، لم يعد أحد قط، ربما وصل بعضهم للمملكة الشاسعة.

استيقظ مفزوعا، ولم يجد أثرا للغابة، أو الأكواخ المصنوعة من جذوع الشجر، مازال داخل القفص الصغير، وقد استيقظ على ألم فظيع في معدته الخاوية، جائعا بشدة.

يجلس عاريا على الأرض، يراقب من خلف الأسلاك، ذات الفتحات المربعة الصغيرة، بشرا يرتدون ملابس غريبة وقبعات دائرية، أصابه منظرها بالخوف، يقفون أمامه، يرمقونه بدهشة، وهو أيضا، ينظر إليهم ذاهلا، مدهوشا مثلهم، بشر ألوانهم غريبة، بيضاء، كأشعة الشمس، يرتدون ملابس غريبة، تلامس الأرض، شعر بالغرابة، داهمه إحساس بالوحدة والخوف بجانب الجوع وعندما رآهم يتحركون بحرية، وهو، حبيس قفص مربع، يشبه أقفاص الحيوانات في موطنه، وبين الحين والآخر، يقذفه بعضهم بالحصوات الصغيرة، تؤلمه، لكنه لا يتحرك، جالسا بثبات، يتصبب عرقا، يحاول التفكير، لينسى ألم معدته، وغربته.

يستمع لأصواتهم، أحاديثهم الغريبة، ود لو يعرف ماذا يقولون، حاول في مرة التحدث إليهم، يسألهم عن وطنه ومكانه، ربما يتلقى منهم أجوبة، تلقى فقط، ضحكات ساخرة، فانكمش على نفسه، كاد يبكي، وحينها نسى الجوع، تغلب الألم النفسي عليه.

جاء الطعام أخيرا، داخل إناء غريب، حساء مذاقه سيئ، أكل دون اهتمام، ليداوي جوعه.

في الأمسيات، يراقب السور الخشبي، سور طويل، يحيط بالفناء الواسع، وفي المنتصف، يقبع القفص المربع. لا يملك مزاجا جيدا، لمراقبة النقط المضيئة في السماء، ينتصب، في محاولة يائسة، ليرى خلف السور الخشبي، معتقدا أن الوطن ليس ببعيد عن هنا، يخفي السور الخشبي أحباءه: الغابة المتشابكة، النهر الواصل لمملكة الإله، يقف على أطراف أصابع قدمه، بلا جدوى، عاد للجلوس، أسند ظهره على سياج القفص، عاقدا العزم على الزواج أخيرا، وقت عودته، والتوقف عن مغازلة جميع الفتيات، سيقدم قلبه لفتاة واحدة، ويبقى للأبد في هذه الحياة، والحياة الأخرى بجوار الإله، مخلصا لها. لتمضية مساء طويل، يمر ببطء، حاول تذكر، كل فتاة في قبيلته بلا زواج، ليختار زوجته، وهكذا، حتى ينام فجأة، وسط أحلام اليقظة.

صباح جديد، أناس، بشرتهم تشبه الشمس، يراقبونه، فيما هو جالس، في منتصف القفص، عاريا، يداعب الحصى حينا، وحينا

يراقبهم مثلما يراقبونه. توقف عن محاولة التواصل معهم، ليتفادى السخرية البادية على وجوههم.

بدأ في غناء أهازيج قبيلته الحزينة، لتزداد الوحشة في قلبه والحنين القاسي، لبشر يشبهونه، يمكنه على الأقل الحديث معهم، والغناء أيضا في الأفراح والأحزان، يوم تجتمع القبيلة، لغناء أغنية الموتى، لشخص فارق الحياة لتوه، لتوديعه، قبل بداية رحلته إلى مملكة الإله، من جوف الأرض.

يسير على أطراف قدميه، يراقب فريسته، وقد شذَّب رمحه جيدا، للصيد، سمع أصواتا غريبة، تصاحبها صرخات مرعبة، كان بعيدا عن القبيلة، يتربص بالفريسة، حيوانٍ ذي مذاق جيد، لعشاء اليوم، تلقى ضربة على مؤخرة رأسه، تألم كثيرا وغاب عن الوعي، واستيقظ هنا، محاطا بسياج، داخل قفص صغير، في فناء يحيط به سور خشبي، لا يذكر شيئا آخر.

ليلة هادئة بدأت، القمر مكتمل، وعشرات النقط المضيئة في السماء، تلاشت جميع الأصوات، صمت مطبق في الأرجاء، بقي هو مستيقظا، قرر الهرب، بدأ يعض السياج بأسنانه القوية، فتحة صغيرة تكفي، ليحشر جسده بينها، ويقفز فوق السور الخشبي، مستغلا، طول قامته، وجسده القوي، وسيعدو حتى يصل إلى الوطن، كأنه يطارد فريسة، في النهاية، سيصل ولن يتذكر هذا المكان الغريب، إلا على سبيل الدعابة، لأصدقائه. مع خيوط الصباح الأولى، ورحيل القمر

لموطن الرب، واستيقاظ الشمس، لتنشر أشعتها الممزوجة برحمة الرب، صلى صلاة صغيرة، قبل العبور من خلال السياج، كاتما صوت ألمه، من أطراف السياج التي تغرس في جسده، وبجسده الفارع، تسلق السور الخشبي، ليعبر الناحية الأخرى، ولم يجد أثرا للغابة أو النهر أو الأكواخ المصنوعة من جذوع الشجر، منازل غريبة متلاصقة، على مرمى بصره، والبشر ذاتهم من يراقبونه، يتجولون، شعر بالخوف.

تنفيذا لخطته، قرر العدو، ليصل إلى موطنه، غير آبه بالبشر الأغراب أو المباني الغريبة، كان يجري، تاركا خلفه، أصوات صرخات عالية وحجارة تصيب ظهره، قرر عدم النظر خلفه، يعدو، مرتعبا، ناظرا للأمام، لا يجد أطراف الغابة، فقط رمالا، ورأى نهرا عظيما، لا نهاية له، نهرا مياهه زرقاء، توقف على ضفاف النهر، يرتعش، جلس على ركبتيه، على الرمال، تطارده صرخات الفزع والحجارة، ناظرا للسماء، ثم أطلق صرخة مدوية، وبدأ في البكاء، قبل أن يتلقى ضربة، على مؤخرة رأسه.

قلت عندما عدنا للغرفة:

- سيموت؟

قال الزائر الغريب، وهو يصنع لحنا جديدا، بأصابعه على طاولة الصالة:

-لا، سيحاول الهرب مرات، في النهاية سيقتلونه، معتقدين أنه نذير شؤم.

- تاريخنا، تاريخ الإنسان، حافل بالمآسي.

وعدت لغرفة المكتب، يتبعني الزائر الغريب قائلا:

- أنت ترسم بسرعة كبيرة!

- نعم.

- أليس لديك شيء آخر لتفعله؟ أصدقاء؟ أو الذهاب لرؤية سعاد؟

- ليس لدي أصدقاء، والساعة الثانية عشرة ليلا، كيف أقابل سعاد؟ أقابلها في الصباح فقط.

* * *

11

منذ العاشرة صباحا، وأنا أتجول في الشقة مرتبكا، أنتظرها، حاولت القراءة وأحرقت ثلاث عشرة سيجارة، وحاولت أيضا الكتابة لأهدأ، فكرت في أسباب التوتر والارتباك، لا توجد أسباب، وعند الثانية عشرة ظهرا، سمعت ثلاث دقات على الباب، فتحت، وجدتها تستند على عصاها، قلت:

- أهلا.

قالت:

- أتعرف يا فتى، إن لك عينيه.

- لا أفهم!

- عيناك، هي عينا مدحت، عيونكم متشابهة لدرجة مرعبة، كأنني أنظر في عينيه الآن، قبل ثلاثين سنة.

دخلت الشقة بخطواتها البطيئة، أغلقتُ الباب خلفها، اتجهتْ نحو اللوحات مباشرة، تبعتها، وقفتُ بجانبها، ظهرها محني للأمام

قليلا، شعرها الأبيض القصير مصفف جيدا، يصل لكتفيها، وترتدي فستانا يصل لركبتيها المتهدلتين، نراقب صورتها في سنوات الشباب، ارتبكت قليلا، لوقوفي جانبها، شعرت بالإحراج لرؤيتها عارية، وكأنها قرأت أفكاري، قالت:

- من في اللوحة ذهبت منذ زمن، وأنا من تبقى منها.

- مازلتِ جميلة!

ابتسمت، وظللنا لدقائق، في صمت، نراقب الماضي، ونحن في حضرة الحاضر، قالت:

- لك عيناه يا فتى، ذكرتني به.

دون أن تحرك عينيها عن اللوحات، لا أعرف ماذا أقول، فضلت الصمت، حتى عادت للقول:

- كل محاولات النسيان باءت بالفشل، أحيانا أمقته مقتا شديدا، مازلت لا أتجاوز، أنه وضع في فمه ماسورة المسدس وأطلق النار، لو فكر فيّ خلال الثواني الأخيرة، قبل ضغطه على الزناد، لعَدَل عن القرار، ربما، لكنه فضل الهروب، وأنا؟

تنهدت تنهيدة طويلة، أراقبها في صمت، تنظر للوحات، تتأمل عريها، الفاتنة التي رحلت قبل سنوات، قالت:

- ظن أن حياتي ستستمر، ستمضي للأمام، مفروشة بالورود، يا ليته أمامي، لصفعته على وجهه، حتى تسيل دماؤه، أصفعه بقسوة،

وعندما يبكي، كطفل صغير، سأحتضنه وأغفر له، لا أستطيع تجاوزه. أتعرف، لم أذرف دمعة واحدة لأجله، كل ليلة، أتذكره، أستحضره في خيالي، لا يستطيع كل الناس المضي قدما، مازلت أحبه، هذه مأساتي، لذا كففت عن محاولات نسيانه منذ وقت طويل، ومحاولات الحب، تفشل دائما، لا أرى رجلا غيره، استسلمت لقدري، لك عيناه يا فتى، كأنه يقف بجانبي، ووجهه النحيف، وجسده الهزيل، آسفة لم أسالك عن اسمك حتى الآن.

قلت، متلعثما:

- إبراهيم، وأنا آسف أيضا.

- عن ماذا؟

- عن كل شيء.

- لا يفيد اعتذارك عن شخص آخر.

جلستْ على المقعد أمام الطاولة، نفس المقعد الذي جلس عليه الزائر الغريب يدندن بأصابعه، عندما رآه مدحت للمرة الأولى، في نوبات وحدته، وضعت وجهها بين يديها وراحت تبكي، بكاء مريرا، بصوت عالٍ، تجمع في صوتها، قسوة الفقدان، وانتظار مستحيل لقادم لن يأتي، وحياة غير مكتملة، واقفا بالقرب منها، حائرا، لا أدري ماذا أفعل، أردت مواساتها، لا أعرف الطريقة المناسبة، أو الكلمات، لمواساة شخصٍ ضاع عمره.

بـدأ نشـيجها يهدأ، ثم تلاشـى بعـد دقائـق، أخرجت مـن حقيبتها الجلديـة، علبة السـجائر، وضعت سـيجارة في فمها، ارتعاشـة يديها، حالت دون إشعال السـيجارة، اقتربت وأشعلت سيجارتها، وأشعلت واحدة لي، جلست على المقعد المقابل، قالت:

- قد لا تصدق ذلك، لكنها المرة الأولى حقا التي أبكي فيها عليه، لك عيناه، بالأمس وقْع ذلك عليّ كان شديدا، لكنني تحاملت.

تنظر إليّ مباشـرة، تكبرني بسـنوات، عيناها مازالتا تحملان البراءة في اللوحـات، حاولت التكلم بلا جدوى، لا أجد الكلمات، وفكرت فـي نبوءة الزائـر الغريب، في المذكـرات، ماذا لو أمطـرت حقا لثلاثة أيام؟

قالت:

- ربما الآن، سأبكي كل ليلة حتى أموت.

وضعت يدي على يديها، وضغطت عليها برفق، وابتسمت، نظرت في عينيها المنهكتين، بسـبب البكاء، وأردت لحظتها، تعلم الشطرنج، لمشاطرتها الليالي في شرفة بيتها وتبادل الحكايات معها، وألمها.

* * *

الفصل الثاني عشر

مات أبي في عامي الجامعي الأول، ترك قدرا لا بأس به من المال، ومن نصيبي اشتريت هذا السجن، لأحيا بداخله. قال الزائر الغريب:

-لوحة رائعة!

كنت انتهيت لتوي من رسم الرجل الضخم، المسجون داخل قفص للدجاج، قلت مبتسما:

-أشكرك.

أحب الثناء على لوحاتي. قال الزائر الغريب:

-لنذهب؟

-رحلة مأساوية أخرى؟

قال:

-لا أعرف.

على ضفاف محيط لا نهاية له، شيدت مدينة فاضلة، صماء، شيدت على أنقاض مدينة، مازالت آثارها باقية، لتذكر الناس، بمصيرهم حال ابتعادهم عن الرب، مدينة فاضلة، بلا حامية لتحكمها بالسلاح، يحكمها رجال الدين، لا يراهم الناس إلا في مناسبات قليلة، يعيشون داخل معبد ضخم يضم مئات الغرف، وعشرات البشر، من فضلوا خدمة الرب بطريقتهم الخاصة، الانعزال. شيد المعبد على هضبة

عاليـة، خلفهـا المحيـط وأمامها، المدينـة كاملة، فـي خمولها الأبدي وحركتهـا المعتـادة، بشـوارعها العريضـة ومنازلهـا البيضـاء، يعيـش السـكان على صيد الأسـماك وبيعها لغرباء، يأتون مطلع كل أسبوع، لشراء الأسماك، بجانب بعض البضائع المصنوعة يدويا.

علـى مقربة من المعبد، من منزل الرب الأبدي، كما كتب بخطوط عريضـة على المدخل المـؤدي لباب المعبد الحديـدي، تعيش امرأة، وحيـدة، تمضي وقتها في الاسـتناد بكوعها على حافـة النافذة، لتتذكر زوجهـا ويـزداد بداخلها الكره تجـاه المدينة وسـكانها ورجال الرب، حتى إن البيوت البيضاء، المريحة للنظر، أصبحت تثير اشمئزازها.

فـى أحد الأيـام، خرج زوجها تجـاه الصحراء الشاسـعة، بحثا عن مـدن أخرى، يمكنه الثراء فيهـا، وبناء قصر الأحـلام لأجلها، هنا، في مدينـة الـرب، الغني يظـل غنيا والفقير يظـل فقيرا، إنهـا تعاليم الرب، كمـا يسـردها رجـال الديـن فـي الاحتفـالات الدينيـة، كأن الفقـر من نواميـس الكـون، يستسـلم الفقـراء لمصيرهـم، تقربا للـرب ورجاله، ويزداد الأغنياء بطشا. أجور زهيدة، ساعات عمل طويلة في المشاغل اليدويـة، ويخرج الرجال بالأسـابيع في عرض البحـر، مقابل الفتات، وجنازات لائقة في حـال ابتلعهم البحر. اختارته زوجا لها، وضاجعته أول مرة على الشـاطئ، واختلط مذاق قبلاتـه بمذاق مياه البحر، وبعد زواجهمـا، كل ليلـة، يرسـم أحلامـه على خصرهـا، القصر الشـاهق، المركـب، حيث يبني بداخله غرفة نـوم، لتمضية الإجازات في عرض

البحر. احتضنته، على باب المنزل، وعدها بالعودة قريبا لاصطحابها، أخبرها عن المدن، التي يحكي عنها التجار، مدن، تحتاج أياما لتكون ثريا، دون مجهود، ظلت واقفة، ترى جسده الضخم يبتعد، حتى لفه الظلام واختفى، قرر الرحيل قبل شروق الشمس. وبعد أسبوع، عاد إليها، محمولا على عربة أحد التجار، مات وسط الصحراء، وحيدا، وعاد جثمانه إليها، منتفخا، متآكلا.

رغبتها في الانتقام تزداد بمرور الأيام، وذات يوم، همست في أذن أحد الأغنياء ورحلت، همسة بسيطة، كافية لزعزعة استقرار شخص ما. في الليل، جاء الرجل متلهفا لمضاجعتها، غير خائف من عقاب الرب، يتلحف بالظلام وخطواته البطيئة، تراه قادما عبر النافذة، بدايات الانتقام. تجردت من ملابسها للمرة الأولى، بارتعاشة خفيفة، وتطلب في سرها، مغفرة زوجها الميت، المرة الأولى للتعري أمام شخص غريب، عدا زوجها. تصطنع اللذة، تصدر صوتا عذبا، عاليا، قادرا على تحطيم أي رجل. وعبر الليالي المتتالية، كانت تستقبل كل يوم رجلا مختلفا، فقيرا أو غنيا، تختارهم من السوق، وأحيانا، يتجول الرجال حول منزلها في المساء، تختار أحدهم بإشارة منها، والباقي يظل في مكانه، يتلصص بعضهم، إنها أجمل امرأة في المدينة، وأصبحت متاحة للجميع، تتلوى تحت أجسادهم العارية، تصرخ بالآهات المصطنعة، صوتها العالي، يخترق صمت المدينة الصغيرة، بمرور الأيام، جعل صوتها العذب جميع الرجال، أسرى لأحلام اليقظة، ليذهبوا كالآخرين، لشفاء أرق علاجه الحب، رغبتها

في الانتقام، أقوى من آلام الجسد المنهك، تريد وصم جميع رجال المدينة بذنب الزنى، أحد المحرمات، بجانب النميمة والقتل. فيما مضى قبل قدوم رجال الرب، كان القتل هواية هنا، وحذرهم رجال الدين، أن الزنى والنميمة والقتل، تجعل أي مدينة تتهاوى للدرك الأسفل، كل شيء يمكن إصلاحه، عدا تلك الخطايا التي لا تغتفر.

في الصباح، تذهب لمقبرة زوجها، لتنثر الورود عليها، تتحمل نظرات الجميع، أثناء عبورها تجاه المقبرة، تتحرك هادئة وسطهم، بجسدها البض الذي أغوى عشرات الرجال، وبسببها، تغلغلت النميمة في المجتمع الصغير بجانب الزنى. تزداد سعادة لنجاح خطتها، وتحولت البيوت الهادئة، لساحات معارك بين الأزواج.

وفي ليلة، جاءها أحد رجال الرب، بزيه الأسود الطويل، ورأسه الحليق، يطالبها بالكف عن أفعالها، مخافة عقاب الرب، قالت:

- أنا لا أخطئ في حق الرب!

وعاد الرجل للمعبد، بعدما ضاجعها هو أيضا، وتهاوى أمام سحرها، ورأته مطرودا من المعبد، يبكي زلته الوحيدة، أمام الباب الحديدي الضخم، حافظت على زيارة قبر زوجها ونثر الورود لذكراه، وأحيانا الحديث معه، أخبرته أنها تدين المدينة ورجال الرب على طريقتها الخاصة، وأنها نجحت في وصم المدينة بالخطيئة، وقالت بفخر، إن ما زرعه رجال الدين عبر مئة سنة، تفتت على يد امرأة خلال عدة أسابيع.

وعبر النافذة، في ليلة شديدة السواد، رأت مشاعل أهل المدينة، ترب منزلها، ترتدي رداء أبيض طويلا، يبرز مفاتنها، كانت تنتظر وصولهم، قررت انتظارهم، بفستان زفافها. اتفقوا على قتلها اليوم، تطهير المدينة من الدنس، قررت استقبالهم، كما استقبلت زوجها، منذ سنوات، في ليلة كالحة مثل هذه.

الوجه الأبيض المستدير، عينان سوداوان، تكتسبان اللون البني تحت أشعة الشمس، شعرها الأسود بخصلات بنية، ترفع حاجبيها الثقيلين، لتوجه نظرات مضحكة، لمن يقودها لموتها، تمشي بدلال لا يناسب عقوبة الموت، نهداها البارزان من فستانها الأبيض، أعادت تفصيل الفستان مرة أخرى، ليتناسب مع زيادة قليلة في وزنها، حتى إنها لم تغفل تفصيلة جعل أردافها مشدودة أسفل الفستان، تمشي وسطهم سعيدة، مثل يوم زفافها. بموتها يتحقق انتقامها، تغوص المدينة في الذنب كما أرادت هي، قال أحد الرجال وقد استقبلته مرة على فراشها:

- اطلبي مغفرة الرب.

قالت:

- اطلبوها أنتم، هذا ذنبكم، موتي مسمار أخير في مدينتكم.

وعند أقدم شجرة في المدينة، الشجرة المباركة، عُلقت مشنقة، لتستقبل المرأة التي سحرت الجميع، وأوقعتهم في حبها وكرهها.

قال الزائر الغريب، لحظة عودتنا، وهو يضحك:

-كنت امرأة جميلة للغاية.

قلت:

-هذا المصير ليس مضحكا، الموت شنقا!

-القتل إحدى الهوايات المفضلة للإنسان على مر التاريخ. ثم قال بعد صمت دام لدقائق:

-ستعود لغرفتك والرسم أيضا؟ الحياة تفوتك!

-لا يفوتني شيء ذو بال.

عدت للغرفة، للرسم. بدأت رحلة الماضي ترهقني نفسيا.

* * *

12

المطر يزيح بعض البؤس المتراكم، والأحزان الدفينة، في مدينة تتشح بالسواد. ظن الأكثر فقرا، أن المطر رحمة من السماء، حتى بدأ يقتلع منازلهم الهشة ويتركهم لحياة الشارع، وظن الأغنياء أن المطر المتواصل يدعو للفرح والدهشة، حتى قيد حركتهم، كنت تراهم في الشوارع، يرقصون بلا موسيقى، يستقبلون قطرات المطر على أجسادهم، فيما انشغل الفقراء بالدعاء. استمر المطر ثلاثة أيام كاملة، عاشت فيها أغلب المدينة في شلل تام، وتحدثت وكالات الأنباء عن الموضوع، كانت الشوارع خالية إلا من مجاذيبها.

ازدحمت القاهرة بعربات شفط المياه، ارتفع منسوب المياه في بعض الشوارع، مكونا ما يشبه الأنهار الصناعية، لم يسقط أي ضحايا بسبب الأمطار، سقطت المنازل الهشة، بقيت أسباب الموت، التي نعرفها، الأمراض والوحدة والظلم والحوادث، لم يغرق إنسان في برك المياه. هرب الكثيرون، لمدن آخرى، خارج نطاق القاهرة، وفي بعض المناطق، تحولت القاهرة لمدينة أشباح، ثلاثة أيام كاملة، وفي شارعنا، لم تحدث أزمة كبيرة، تنتشر البلاعات، المفتوحة على

مصاريعها لاستقبال المياه، تحولت قسوة القاهرة، لعجز، وانتشرت أقاويل، أن نهاية العالم تقترب، كأن القاهرة مركز الكون، ومنها تبدأ النهاية.

أجلس في الشرفة مع سعاد، أمامنا طاولة الشطرنج، تعلمني، ونراقب الأمطار، في يومها الثالث، رفيقها العجوز، لم يأت بسبب الأمطار، قال لها عبر الهاتف، إن أولاده يمنعونه من الخروج، خوفا عليه، لكنه يشتاق لصحبتها. تخرج يديها، تتجاوز سقف الشرفة وتلامس قطرات المطر، أردت إخبارها بالمكتوب داخل مذكرات مدحت، عن النبوءة وأن المطر بسبب بكائها، مواساة لدموعها وغضبها، قالت:

- ما سبب المطر، أتعرف؟

قلت:

- ربما الاحتباس الحراري.

قالت ساهمة وهي تستقبل قطرات المطر على يديها:

- ربما.

قلت:

- سأسافر خارج مصر أخيرا!

-هجرة؟

- لا، سياحة، أيام قليلة وأعود إلى مصر.

قالت مبتسمة:

- هنيئا لك يا فتى، المرة الأولى لك؟

- سافرت السعودية ثلاث مرات لأبي فقط.

- ستذهب لباريس؟

- لا، جزيرة في وسط البحر قرب «كان».

قالت مستنكرة:

- لماذا؟

- أحتاج للهدوء والراحة.

بدا الاستغراب واضحا على وجهها، قالت:

- أنت لا تسافر كثيرا! يجب أن تستمع، مازلت شابا صغيرا للراحة والهدوء، مثل هذا الكلام يستخدمه العواجيز أمثالي. ثم ضحكت ضحكة خفيفة.

قلت مبتسما بدوري:

- أعتقد أنني سأسافر ثانية، وأنت لست عجوزا بعد.

قالت:

- كم يوما ستبقى هناك؟

- يومان للسفر وثلاثة أيام في الجزيرة.

- ألا تجد الهدوء هنا، لتقطع مئات الأميال للحصول عليه؟ وباريس أيضا رائعة؟ ستفوتك!

- لا أعرف، لا أجد أي راحة هنا.

* * *

الفصل الثالث عشر

في البدء، الرحلات بدت ممتعة، الخروج من حوائط الشقة، لعالم لا أعرفه، لتتحول بالتدريج لعبء نفسي لا يحتمل، كأن كل حيواتي، كتلة متصلة من المأساة، أو الزائر الغريب يغفل لحظات الفرح متعمدا، لا أرى سوى مأساويات متتابعة، كأن مأساتي الحالية لا تكفي.

تململت قليلا، عندما جاءت الساعة الحادية عشرة ونصف. ويأتي صوت دندنات الزائر الغريب، كريها من الخارج. في ثانية واحدة، كنت أراه يقف على مدخل الغرفة. اشتقت لسعاد. ورحلنا لمأساة أخرى، كنت أعيشها فيما مضى.

في برلين، رغم الأوامر الصارمة، يتجول دائما وحده، بلا رفقة، يحمل سلاحه بكلتا يديه، يمشي بلامبالاة، الطائرات الحربية لا تغادر السماء، أصوات القنابل، النيران المتوهجة في أماكن عدة، وقرب مخبأ هتلر بخمسة شوارع، تدور معارك طاحنة، يسقط المزيد من القتلى، الرايات البيضاء لا تُرفع إلا نادرا، يمشي في شارع تضيئه ألسنة اللهب، يمشي منذ ثلاث سنوات تقريبا، فقد في الطريق الطويل، إلى هنا، أصدقاءه ونفسه، وصل برلين وحيدا، بلا دوافع للقتل، تخلى عنه الخوف، تساءل، لماذا لم يعد يُكنّ للألمان الكره، لتكون الأمور أسهل!

زار برلين في طفولته، مع والده، زيارة تبقت منها فقط، صورة فوتوغرافية باهتة، تحولت برلين لأنقاض، لهزيمة ديكتاتور لا يستسلم.

يرى من وسط ركام الأبنية عيونا تراقبه، نساء وأطفال، يتمنى رصاصة طائشة من امرأة تثأر لزوجها، الموت يتربص بالجميع في أنقاض برلين، يراقب لحظات السهو في المعارك، الأخطاء البسيطة، شجاعة الحمقى، يتقمص الموت شخصيات عدة، يختبئ في كل مكان، لكن هو، لا يصادفه الموت أبدا، يتعثر في جثث بعض الأشخاص، الشروق قريب، تصعد الشمس للسماء، تنير المدينة، يظهر القبح أفضل، الأنقاض، الموتى، الكره على الوجوه، التعاسة الشديدة للجميع، أخرج أحد خطابات خطيبته.

«لماذا تأخرت في العودة؟ متى تنتهي الحرب؟ عد إليّ، سالما أو مصابا، لو عدت مصابا، سأخدمك طوال حياتي، لا تقلق، سئمت الانتظار، انظر للقمر وعِدني أنك لن تعود في نعشٍ سيئ التهوية».

في الحرب، لا توجد فضيلة واحدة، سوى الخطابات التي تصل من الوطن، تربطنا بالعالم، وصل لمقر الكتيبة، انتهت نوبة الحراسة، يستلقي ويضع رأسه على حقيبة الظهر، قطع الشارع بحثا عن جنود ألمان وحده، يملك شجاعة المواجهة، لكن الموت والحياة، أصبحا وجها واحدا، لا خوف، فقد الشعور بكل شيء، ربما، فقد نفسه، في مدينة ما، تحولت لأنقاض في الطريق لبرلين، حقيبة الظهر، يعلقها على كتفه دائما، ويضع رأسه عليها أثناء النوم، رفيقته بجانب السلاح، تحوي عشرات الصور والميداليات التذكارية، أخذها من جثث الجنود الألمان والسوفييت، صور للزوجات والأطفال والأصدقاء،

وخطابات ملوثة بالدم، تحوي الحقيبة ما تبقى من إنسانيته، كل ليلة إن بقي حيا، يفتح الحقيبة ويرى الصور ويقرأ الخطابات، لقد قتل الكثيرين على امتداد الحرب، ويحاول يوميا، بلا جدوى، تذكر وجه خطيبته، لا يتبقى في ذاكرته سوى القتلى، وروائح الموت، يتلقى خطاباتها، لا يحمل صورة لها، ضاعت مثل أشياء كثيرة، حتى حذاءه، يعود لرجل ميت.

في المساء التالي، أسند ظهره على بناء نصف مهدم، ووضع سلاحه بجانبه، انتهى من التجول، أخرج خطابا آخر، من خطيبته.

«أخبرتني أمي سرا، سأخبرك به، لأنك حبيبي، طوال فترة الحصار في ستالينجراد، كانت أمي تطبخ الجنود الألمان على نار هادئة، لنأكل، كنت أسألها دائما، من أين لنا باللحم، تقول، الله يرسله لنا، لقد أكلت حوالي ثلاثة جنود، في الحقيقة، كان مذاقهم سيئا، أين أنت الآن؟ لا تمت أرجوك مثل البقية، أرسل لي خطابا».

وضع الخطاب في حقيبته، يسمع صوت بكاء خافت، يعرف هذا الصوت جيدا، صوت البكاء، الصوت يأتي من البناء نصف المهدم، وقف، دفعه فضوله للنظر، غير خائف من كمين ينصبه رجال، يدافعون عن ديكتاتور، يلفظ أنفاسه الأخيرة، بحث عن مدخل للبناء وسط الركام، وجد واحدا، أحنى ظهره وعبر من خلاله، ألسنة اللهب، المتقدة في المبنى، على الناحية الأخرى من الشارع، تضيء الغرفة الصغيرة، وجد امرأة، تضم ركبتيها إلى صدرها، وتخفي بيديها

وجهها، اقترب منها، لمح التوجس في نظراتها، خائفة، وارتعاشا لا يتوقف، جلس قبالتها وانتزع يديها من وجهها، يتحدث القليل من الألمانية، يفهم جيدا ما يقال، لكنه سيئ في التعبير، لذلك، عندما أخبرته أنها تعرضت للاغتصاب مرات، على يد جنود يشبهونه، في حرب هي لم تعلنها، لكنها تعاقب لأجلها، لم يستطع مواساتها جيدا بالكلمات، جلس بجانبها ووضع يديه حولها، احتضنها، منحها كامل طعامه وغادر، طالبها بالبقاء هنا. في اليوم التالي، جاء ومعه بعض الملابس، أخذها من حقيبة امرأة ميتة، شكرته وطلبت منه أن يدير ظهره لتغير ملابسها، انشغل بقراءة خطاب آخر.

«عزيزي، لا أحب اسم ابننا الأول، عندما تعود نختار اسما جديدا، المنزل الذي خططنا لشرائه، لم يعد موجودا، تحول لحطام، تجولت اليوم ورأيت جثة صاحبة المنزل، تحولت لهيكل عظمي، مرتدية فستانها الأسود، أعتقد أنها تستحق الموت، الجميع يستحقه».

ارتدت فستانا طويلا، وجلست بجانبه، راقبها وهي تأكل، عيناها محمرتان لفرط بكائها، أشفق عليها، وقبَّل رأسها، ابتعدت برأسها للخلف، طمأنها، لا يريد شيئا. لا تنتهي الحرب، يعود للمرأة الألمانية كل يوم، يعطيها طعامه ويتحدث معها، كأن في هذه الغرفة الصغيرة، داخل البناء المهدم، عادت إليه إنسانيته، تبادلا أحاديث طويلة، ساعده أيضا، أن كتيبته، لا تخوض المعارك على الخط الأمامي، أوكلت إليهم مهمة تأمين الشوارع، خوفا من الجنود الألمان المختبئين في

الأنقاض. أحد الأيام، سمع جلبة في الخارج وبعد لحظات، كان رفاقه من الكتيبة، داخل الحجرة، مبتسمين ببلاهة، خمسة جنود، تسللوا خلفه إلى هنا، طالبهم بالابتعاد، أرادوا مشاركتها معه. ظنوا، أنه يمارس الجنس معها وحده، وقفت هي بعيدا، ترتعش، لا تفهم كلماتهم، ولاحظ خوفها، عرف أنهم لن يغادروا إلا باغتصابها، ولن يستطيع مقاومتهم، سيردونه قتيلا ويغتصبونها، يريدون الانتقام منها وإذلالها، في لحظة واحدة، أخرج مسدسه وأطلق النار على رأسها، حتى لا تتعرض للاغتصاب ثانية والذل، وغادر، وترك رفاق كتيبته، يتبادلون النظر والحسرة.

لا يعرف كيف قتل الألمانية بتلك البساطة؟ وكيف نجا من الحرب؟ وعلى مبنى المستشارية الهائل في برلين، كتب بحروف صغيرة «سأعود للوطن ميتا، بشكل ما، لن أعود حيا»، يكتب رفاقه، أسامي الأحباء، وأساميهم، لقد شاركوا في معركة تحرير برلين. انتهت الحرب، أراد البكاء والشعور بالسعادة أو أي شيء، لم يعد يشعر، لقد مات قبل شهور، ورأى أمامه جنديا ألمانيا، يخرج من مخبأ صغير في الأرض، يهتف تحيا هتلر وأطلق الرصاص عليه، سقط على الأرض، يحتضن حقيبة الظهر، يمسك بيديه، سلسلة صغيرة، أخذها من عنق الفتاة الألمانية، بعدما غادر رفاقه.

عند عودتنا للشقة قلت للزائر الغريب غاضبا:

- يكفي هذا!

قال آسفا:

- انتهت الرحلة؟

- نعم.

قال:

- أتريد رؤية كيف ينتهي العالم؟

فكرت قليلا، وأنا أحضر أدوات الرسم وأضع اللوحة البيضاء على مسند اللوحات، لن تضر رحلة أخيرة، لرؤية فناء هذا العالم. قلت:

-حسنا، رحلة أخيرة.

وشرعت في الرسم.

* * *

13

صخب باريس وأضواؤها سيبقى حلما مؤجلا، أردت رؤية ما بقي من باريس القديمة، التي أحبها إرنست همينجواي، عوضا عن ذلك، ذاهب لجزيرة في عرض البحر، غارقة في هدوء مخيف، أكرهه، لتتبع مذكرات رجل مات قبل سنوات، نبوءة الأمطار غيرت مسار رحلتي، ثلاثة أيام من المطر، تنبأ بها، ملاك قادم من السماء، كما قال مدحت، بسبب بكاء امرأة أحبته.

الفنادق في الجزيرة، جميعها على البحر، قرب المرفأ الصغير، أكواخ بحمامات حديثة، أكواخ من خشب، تستقبل الراغبين في تمضية وقت هادئ، وكتب أيضا، عن الهضاب، يمكنك مراقبة المدن من هناك، وتوجد هضبة تمكنك من رؤية برج إيفل، عرفت كل شيء عبر الإنترنت، وحجزت الفندق ودفعت حق الليلة الأولى، سأذهب لمدينة «كان»، وأستقل «تاكسي» حتى مرفأ المدينة، ومن هناك، أستقل عبَّارة، للذهاب إلى جزيرة القديس «ألكسندر»، سميت الجزيرة بهذا الاسم، بسبب رجل طلب الغفران من الكنيسة، على كل أعماله الشريرة، وطلب منه أحد الكهنة الذهاب لمنطقة معزولة، لبناء تمثال

للسيد المسيح، كان الرجل نحاتا، ينحت أجسادا عارية للرجال والنساء، وذهب الرجل للجزيرة المهجورة ونحت تمثال السيد المسيح، وانتشر الخبر، وسميت الجزيرة على اسمه.

داخل مطار القاهرة، أنتظر ميعاد رحلتي، الساعة العاشرة مساء، تهاتفني سازة كل ربع ساعة، غاضبة من الرحلة، أخبرتها أنها ثلاثة أيام ويومان للسفر، تمنت توفير نفقات الرحلة لزواجنا، وسنذهب أنا وهي بعد الزواج معا، أخبرتها بذهابي لباريس، تبدو فكرة ذهابي لجزيرة، مازالت تنعم، تقريبا، بحياة القرون الوسطى، فكرة سيئة، إذا أردت البحث عن الهدوء، اذهب للأرياف أو الصحراء، كما أخبرتني سعاد، وأنا أودعها، سأشتاق للمرأة العجوز، ولنظرات الحنين في عينيها وهي تنظر صوب عيني، لم ألاحظ الشبه بيني وبين مدحت في صوره، هي فقط من ترى الشبه.

شعرت بانقباضة في معدتي، كلما ركبت طائرة أشعر بانقباض، سافرت ثلاث مرات بالطائرة، جميعها لأبي في السعودية، في زيارات خانقة رفقة الأسرة، كنت أذهب هناك، للبقاء طوال إجازة الصيف، محبوسا داخل المنزل، منازل يميزها وجود التكييف، دائما أحمد الله، بذهاب هذه الأيام بلا رجعة. سنتان من محاولات تعلم الفرنسية، وسنة كاملة في تحضير الأوراق، رحلات طويلة، داخل أروقة المكاتب الحكومية، والنظر في وجوه موظفي شئون الطلبة، الساخطة على الدوام، وموظفي مجمع التحرير، كدت أرقص لحظة

حصولي على الفيزا، بعد أسئلة عديدة، ومقابلات غريبة، حلم السفر، ظل يراودني على مدى شـهور، وتعلم الفرنسـية، حلم قريب التحقق. نادرة هي الأحلام التي تتحقق.

14

فى مطار «كان»، خرجت سريعا، إجراءات تفتيش بسيطة، وابتسامات هنا وهناك، وجدت «تاكسي»، تحدثنا قليلا طوال الطريق، وتمنى لي رحلة سعيدة، قال إنه قضى شهر العسل هناك مع زوجته، في جزيرة القديس «ألكسندر»، تحدثنا كثيرا، ولم أنتبه للطريق، أو المدينة، وجدت نفسي داخل العبارة، ساعدني الرجل، وحمل حقيبتي الصغيرة، ووقف وقت رحيل العبارة يلوح بيديه لأجلي. تتحرك العبارة ببطء، تصدر صوتا قبيحا، تقطع طريقها في عرض البحر، بتأنٍ. عدد قليل من البشر على سطحها، أغلبهم سياح مثلي، ننظر لبعضنا بعضا ونبتسم، خلفنا المدن والشوارع المرصوفة جيدا، وأمامنا جزيرة، ممتلئة بالهضاب والقرى الصغيرة المتناثرة، نصف ساعة في البحر قبل الوصول للمرفأ، بدا البحر أزرق، ونسمات الهواء تداعب وجهي المرهق، فكرت في أندروا، تمنيت ألا يوجد شخص بهذا الاسم، يعيش هناك، أو شخص مات منذ زمن كان يملك في جعبته حكايات رائعة. نزلت من العبارة، هضاب، وعلى طول الشاطىء، قرب المرفأ، أكواخ متجاورة، وجدت شخصا يقف على المرفأ، قصير القامة،

أسـود الشـعر، بدين قليلا، سألته عن اسـم الفندق، رحب بي، وحمل عنـي الحقيبـة الصغيرة، وطـوال الطريق، على الشـاطئ، ظل يتحدث بلا توقف، عن الجزيرة وعما يمكن توفيره هنا، مقابل قليل من المال، وأنه سيكون سعيدا، لو أصبح مرافقي، خلال رحلتي، قال:

- كم ستبقى من الوقت؟

- ثلاثة أيام.

- فقط؟!

هـزت رأسـي بالإيجاب، سـألني عن وطنـي، وجاوبتـه، تحدث عـن الأهرامات وأبـو الهول والمصرييـن القدماء، فـي محاولات منه لإبهاري، ثم قال:

- ألا ترى أن قدومك من مصر لتمضية ثلاثة أيام فقط، غير جيد؟

قلت ساخرا:

- أحب وطني كثيرا، ولا أحب الابتعاد عنه.

وصلنـا للفندق، أشـار الرجل إلى طريق صغير، مـن هناك يمكنني الذهاب للبار، سأمشـي عشـر دقائق فقط، ورؤية تمثال السيد المسيح والهضـاب لرؤيـة المـدن على الجهـة الأخـرى والاسـترخاء، دخلنا للاستقبال، غرفة صغيرة، بها مكتب صغير، تجلس خلفه فتاة قمحاوية، ذات شعر مائل للون البني، قالت عندما رأتنا ندخل:

- أندروا! كيف حالك يا أحمق؟

قلت:

- بعض الاحترام لن يضر، أنا أكبرك بسنوات.

ضحكت الفتاة وسألت عني، أخبرتها بوجود حجز مسبق باسمي:

- إبراهيم علي محمد.

- نعم، أهلا بك، تفضل أرجوك.

جلست أمامها على المكتب، مذعورا، في لحظات ذعري، يسخن وجهي، ويصبح لونه أصفر، كشخص مريض، لاحظت الفتاة وقالت وهي تخرج أوراقا من درج المكتب:

- أأنت بخير؟

- نعم، آثار السفر فقط.

وابتسمت. أقف بجوار أندرو الصغير، هكذا بدا لي، تزداد حكاية مدحت صدقا، هل هو من منحته أمه اسما، تيمنا بأندروا، صاحب الحكايات الرائعة، منحتني قلما لكتابة البيانات، ودعني أندروا، وأخبرني، أنه في خدمتي. أحتاج لمرافق، وللتحدث معه، تواعدنا على المقابلة بعد خمس ساعات لأرتاح قليلا، على الساعة الثامنة مساء. غادر أندروا، وسألت عاملة الاستقبال عنه:

- أندروا، إنه يرافق السياح، هكذا يكتسب قوت يومه. هل تتحدث الفرنسية؟

- أفهمها وأتحدثها قليلا، أحاول تعلمها منذ سنتين تقريبا، بسبب بلزاك وكامو وأندريه جيد وسارتر وغيرهم أريد قراءة الروايات بلغتها الأصلية. ثم قلت:

-الفرنسية صعبة حقا.

ضحكت وقالت:

- نعم وتعجبني محاولاتك في التعلم لأجل القراءة، الترجمة تسلب الكثير من الروايات رونقها، لكن من الجيد أنك تتحدث الإنجليزية.

- نعم من الجيد أنني أتحدث شيئا غير العربية.

تملأ بعض الخانات، قاطعتها وقلت:

- ألا يبدو اسم أندرو غير فرنسي؟

- اسمه إيطالي ربما، لقد تم تسميته تيمنا برجل اسمه أندرو عاش ومات هنا، أحبه الجميع.

ابتلعت ريقي، وقلت:

- لماذا يحبه الجميع حتى يسمي أحدهم أحد أبنائه على اسمه؟ شخصية مشهورة؟

- شخصية مشهورة هنا، في الماضي كان يجمع الأطفال والكبار ويحكي لهم قصصا جميلة، حدثتني والدتى عنه.

قلت كاذبا:

- نعم أخبرني جدي عنه.

قالت بدهشة ممزوجة بفرح طفولي:

- هل جاء جدك هنا قبلا؟

- نعم، منذ زمن بعيد، ويبدو أن الأمور لم تتغير هنا كثيرا!

- لا، مازالت الجزيرة على حالها.

اصطحبتني لكوخي، أمام البحر مباشرة، بعيدا عن الشاطئ بعدة خطوات، سألتها لماذا لم يتم بناء الفنادق على أي جهة بعيدا عن المدن، قالت:

- أتكره المدن؟

- جدا.

- أنا أتمنى الحياة في المدينة، عند بلوغي الخامسة والعشرين سأهرب من هنا، على أي حال، باقي الشواطئ، لا تصلح، جميعها شواطئ صخرية.

ودعتها وأغلقت باب الكوخ، سرير وحيد، ومكتب صغير أمامه مقعد، وذعر لا يفارقني، وشعرت أنني أريد التقيؤ، الإنسان لا يموت؟ كائن خالد، يملك مئات الحيوات، ويختار مصيره في كل مرة، الخير أو الشر، الموت أو الحياة، ظللت لساعة أفكر، أرهقني التعب حتى نمت.

15

استيقظت في الثالثة فجرا. ذهب أول يوم هباء، خرجت من الكوخ أبحث عن الطعام، زال الذعر قليلا، وبدأت أفكر ماذا كنت في حياة سابقة؟ ربما كاتبا مشهورا أو قاتلا متسلسلا تُصنع عنه الأفلام الآن، مشيت قليلا على طول الشاطئ، كما وصفت عاملة الاستقبال، وجدت مطعما صغيرا، عيش محمص مع علب جبن ومربى، أكلت الكثير، وعدت للشاطئ، وأرى على الجهة الثانية أضواء «كان»، أخلفت الميعاد مع أندروا، تمشيت كثيرا، وصعدت هضبة غير عالية، وجدت مقاعد، أدخن وأشرب البيرة، بيرة سيئة، اشتريتها من المطعم الصغير، أرى المدينة وأضواءها. حقيقة، تمنيت وجود سعاد هنا، في مكان قريب، لأخبرها أن مدحت لم يقتله جنونه، بل الوحدة، على ما يبدو، لم يكن الرجل مجنونا، شعرت بالبرد، وأفقت من أفكاري على شروق الشمس، التفت، رأيت الشمس صاعدة من نهاية المحيط، تسمرت في مكاني، شعرت بالنشوة، تلاشت مخاوفي، لجمال ما أرى، ربما لم أكن سأرى غروبا مثل هذا في باريس، والجزيرة أضخم مما تخيلت، حقول شاسعة، قمح وفواكه وأشياء لا أتبينها، ومنازل

قريبـة، احتجت للصعود إلى هضبـة أعلى لأرى جيدا، قررت الصعود غدا في الصباح أو مساء رفقة أندروا، لنتحدث.

أثنـاء نزولي من الهضبة، رأيت أندرو صاعدا، انتظرته، قال بصوت عالٍ:

- يا رجل، لقد انتظرتك ولم تخبرني مارثا عن رقم غرفتك، لأنها ظنت أنك مريض وفي حاجة للنوم.

- نمت كثيرا، كنت مرهقا حقا؟

- كيف تجرؤ على الإرهاق والنوم وأنت هنا لثلاثة أيام فقط؟

قلت مبتسما:

- سوء حظي.

تفوح منه رائحة الخمر والعرق، روائح مختلطة، سيئة للغاية، مشينا حتى كوخي، ليعرفه، ليمنعني من النوم في المساء، تعاهدنا على ميعاد آخر، في الثامنة للذهاب إلى البار، قررت النوم قليلا، لأبقى مستيقظا طوال الليل.

للبار مسـرح صغير، يرتفع عن الأرض بدرجتين من السـلالم، في المنتصف مقعد خشبي، يشبه مقاعد الملوك، أمامه ميكروفون، أجلس علـى طاولة قرب المسـرح، بجانبي أندروا، يتحدث باسـتمرار، يبتكر الأفكار، لسـلب نقودي، يغازل الفتيات لأجلـي، لأعود للفندق برفقة إحداهـن، يقتـرح أمورا نفعلها سـويا، بلا يأس من رفضـي المتواصل

لكل اقتراحاته، الجميع يتحدث في وقت واحد، رائحة الخمر الممزوجة برائحة العرق، والأضواء الباهتة للحانة، وقطط صغيرة أسفل الطاولات، تداعب أقدام الجالسين. دخل إلى البار، رجل أشيب الشعر، يتكئ على عصاه، يرتدي نظارة سوداء، وبدلة بيضاء، وقبعة رعاة البقر، بدأ صوت الجميع يخفت، نسمع وقع خطواته على أرض الحانة الخشبية، وضربات عصاه، كأنه ينبئ الجميع بقدومه، حتى أندرو بدأ يلازم الصمت، صعد الرجل الدرجات الخشبية، وجلس في مقعده، جاء شاب وأعطاه «كمان»، تنحنح الرجل بطريقة مضحكة، ووضع الكمان على كتفه، ابتسمت، لم يبتسم سواي أحد، مصباح صغير معلق، أعلى المقعد الخشبي، أضاءه البارمان، لنرى عازف الكمان جيدا، ضوء البار الباهت، كان يخفي نصف وجه الرجل، في البداية، بدا كشبح مخيف، جالسا يراقب تصرفات البشر.

بدأ الرجل في العزف، تلاشى صوت رواد الحانة تماما، لا تسمع سوى صوت الموسيقى، وتنهيدات، هنا وهناك، والوجوه الناعسة والغاضبة، تسترخي، تتسرب الموسيقى بداخلهم، وامرأة أسندت رأسها على طاولتها، وأغمضت عينيها، حتى القطط، نامت على الأرضية تستمع، ظللت أراقب الجميع، وفي النهاية، بعد دقائق، استسلمت لوقع الموسيقى، صوت الكمان، مقطوعة لم أسمعها يوما، موسيقى تبعث على الطمأنينة، الراحة، لا أتذكر المرة الأخيرة، التي شعرت فيها بالراحة هكذا، ربما قبل خمس سنوات، أو أكثر.

توقف العزف فجأة، أردت التصفيق، لم يصفق أحد، مازال الجميع ينعم بغيبوبته، صعد رجل، وأعطى عازف الكمان، كوب خمر كبيرا، قال أندروا:

- إنه يعزف هذه المقطوعة منذ عشر سنوات ربما، ولا يمل أحد منها.

قلت:

- يعزف كل يوم؟

- لا، ثلاثة أيام في الأسبوع، ثلاث مقاطع مختلفة، جميعها هكذا، أشعرت بما نشعر به؟

- نعم، أهو رجل مشهور؟

- هنا فقط، داخل حدود الجزيرة، لا يسمح لنا بتسجيل المقطوعات، يلعب الموسيقى لراحته وراحتنا، يمقت الشهرة.

ظل عازف الكمان في مكانه، وضع الكمان على الأرض، بجانب عصاه، جاء صوت ساخر من آخر الحانة:

- يا لويس، أيهما تفضل بصرك أم موسيقاك؟

قال عازف الكمان:

- أخذ الله بصري ليعطيني الموسيقى، كانت مقايضة عادلة، تخيل لو كنت أملك بصري، أي ذنب اقترفته لأرى وجوهكم القبيحة كل يوم، يكفي أصواتكم.

ضحك الجميع، وعادت الأصوات ترتفع، وتتحرك القطط، وتُضرب الكئوس في بعضها، واستمرت مغازلة الفتيات، غادر الرجل المسرح، كما جاء، ببدلته البيضاء وقبعة رعاة البقر، قلت لأندروا:

- أين يذهب؟

- لمنزله، يسكن في منزل أندرو الكبير، فهو قريب لمارلا زوجته.

- وحده؟

- إنه أعمى لكنه يعرف جميع الطرق، بيته ليس ببعيد، أتريد رفقته؟

قلت متحمسا:

- ربما أسأله عن أندرو الكبير وجدي.

قال أندروا:

- اتبعني إذا.

تحمست لفكرة دخول منزل أندروا، أو إبليس في مذكرات مدحت، لم يعد الأمر مرعبا، بل جميلا، أن تعرف البداية والنهاية وأن الإنسان يختار مصيره.

قال أندروا:

- انتظر يا لويس.

- من؟

- أندروا.

قال عازف الكمان ساخرا:

- لا أريد عاهرات اليوم، ربما غدا أمتلك الرغبة.

قال أندروا:

- معي سائح من مصر يريد التعرف بك، جاء جده هنا قبل سنوات طويلة، وقابل أندرو الكبير.

- أهلا به.

رفع عازف الكمان يده، اقتربت وسلمت عليه، ومشينا سويا لمنزله، كما قال مدحت، منزل يقع فوق هضبة، يشرف على قرية صغيرة، ويمكنك رؤية الحقول الشاسعة منه، لكنني لم أر سوى الظلام، والأضواء الأمامية، للمنازل القليلة المتناثرة، دخلنا المنزل، نتبع عازف الكمان، ظلام دامس، قال عازف الكمان:

- أندروا، أنت تعرف أين مفاتيح الأضواء.

أضاء أندرو المنزل، منزل شبه خال من الأثاث، توقعت رؤية صورة أندرو الكبير على الحائط مع زوجته، الحوائط خالية وكئيبة، اتجهنا صوب غرفة أندرو الكبير، يوجد هناك سرير، ومئات الكتب، قال عازف الكمان:

- حالة البيت سيئة، أخذ أولادهم كل شيء، أولاد أندرو ومارثا، وتركوا الكتب وهذا السرير والحمد لله، تركوا الحمام أيضا.

ضحكنا، وقلت:

- أين هم؟

- في مدينة ما، يكرهون هنا على عكس والدهم.

تحدث عازف الكمان كثيرا عن أندروا، عن حكاياته، ومساعدته للجميع، وقال إن يوم جنازته، كان يوم تعيسا للغاية، بكى الجميع، ومازالوا يضعون الورود على قبره، هناك، قرب تمثال المسيح. حكى عازف الكمان، عن تمثال المسيح، أخبرهم أندرو الكبير أن رجلا أصابه السأم من المدن والحروب، وهرب إلى هنا مع زوجته وثلاثة أطفال، بنى منزلا في الخلاء، وكان أول من يشهد على معجزة الرب، بمنفعة هذه الأرض للزراعة، أول منزل في الجزيرة مازال قائما، لكنه لا يصلح للسكن، سيسقط في أي وقت، واكتشف البحيرة الصغيرة، وعمل قنوات لتصريف مياه الأمطار وشق، وحده، نهرا صغيرا، ليصل لأرض قرر زراعتها، قال عازف الكمان:

- بالطبع أنا لا أذكر جميع تفاصيل القصة، لكنها مكتوبة هنا، وأنا لا أريد التفتيش في الأوراق، قد تطير.

وأكمل، في ذات يوم، عاد الرجل للمنزل ووجد زوجته تبكي، بكاء مريرا، أخبرته بحاجتها للصلاة، وهنا لا يوجد شيء يمكن الصلاة أمامه، وقرر الرجل، العودة لمهنته السابقة، النحت، وخلال عدة أسابيع، انتهى من تمثال السيد المسيح، وعاد للمدينة، وأحضر شموعا كثيرة، لتشعلها أثناء صلاتها، وسميت الجزيرة من يومها، باسم جزيرة القديس «ألكسندر»، وكان الرجل لا يصلي أبدا، لا يتعبد ولا يشعل شمعة واحدة، مكتفيا بصلوات زوجته، مقتنعا أن مغفرة الرب ستشملهما سويا، وبدأ الناس يتوافدون على الجزيرة، هربا من

المدن الخانقة، وأصبح تمثال السيد المسيح علامة مميزة هنا، يأتي الناس لإشعال الشموع والرحيل، واختار أجدادنا الحياة هنا، بعيدا عن المدن وبنوا منازل واستقروا، وتغيرت قصة الرجل، وقال البعض إنه يتبع للكنيسة، وجاء لنحت التمثال، بعدما أخبره كاهن، أن الله لن يغفر له أخطاءه إلا بنحت التمثال، في مكان بعيد، وكثرت الحكايات، قال عازف الكمان أخيرا:

-مازال التمثال بحالة جيدة، فاتحا ذراعيه للجميع.

قلت:

- أتقول إن أندرو الكبير، سجل كل شيء هنا في أوراق؟

قال:

- نعم، تحت السرير، لكننا لا نحتاج قراءتها، لأننا نعرف ما بها، نحن الجيل القديم، أما أبناء اليوم، صدقني، فبعد موتي سيأخذون الأوراق لحرقها والتدفئة بها في الشتاء والكتب سوف تباع بثمن بخس لبعض السياح، لأنها كتب قديمة.

قلت، محاولا مداراة لهفتي:

- يمكنني أخذ الأوراق والاحتفاظ بها، لتبقى سليمة.

رحب عازف الكمان بالفكرة، ربما ليرضي ضميره تجاه الأوراق، قال:

- هل جدك رأى أندروا؟

- نعم، جاء في زيارة واستمع لبعض حكاياته وأحبه.

- أحبه الجميع. ثم قال:

- اسمع يا فتى، أشعر بنبرة الصدق في صوتك، حياتي قائمة على الأصوات، سيبدو فعلي غريبا، لكن خذ الأوراق واحتفظ بها، هؤلاء سيحرقونها.

لاحظت الامتعاض البادي على وجه أندروا، حتى همست في أذنه أنني سأمنحه بعض المال، فرح، وبارك الموضوع بحماسة، وظللنا طوال الليل نتحدث، عن الموسيقى وأندرو الكبير والأدب، قلت:

- لماذا لم تذهب للمدينة، موسيقاك رائعة؟

- يا بني، لا أريد التحول لسلعة، هنا الناس يحبون موسيقاي حقا، وتهوّن عليهم بعض الأمور.

طلع الصباح، كان أندرو نائما، غادرت بدونه، أحمل شنطة كبيرة، تحوي مئات الأوراق المكتوبة بخط جيد، أقسمت لعازف الكمان بالمحافظة على الأوراق، أمشي وسط الحقول، أعرف طريقي جيدا، استيقظ بعض الناس لمباشرة أعمالهم، وعلى الهضاب العالية، يجلس البعض، يتأمل الجهة الأخرى من العالم. انتهى يومي الثاني، في جزيرة شبه منسية.

16

يقف تمثال السيد المسيح، فاتحا ذراعيه، محاطا بسياج حديد صدئ، وباب صغير للدخول، ساحة واسعة تشبه الميدان، أشجار تلقي ظلالها على المكان، وأمام التمثال، تجلس امرأة، تتشح بالسواد، تتمتم صلواتها بصوت شبه عال، انتظرنا دورنا، أحضر أندرو شمعة، لأشعلها أمام التمثال، وأطلب مغفرة المسيح على أخطائي، لا يعرف أندرو ديني، لكنه يعرف أن لديّ مالا، والشمعة سأدفع ثمنها الضعف، لكنه مازال مصرا، على أن الطقوس لا تكتمل إلا بوجود الشمع. رحلت المرأة، ودخلنا عبر الباب الصغير، جلست على ركبتي، أشعلت الشمعة، جلس أندرو إلى جانبي، يضم يديه أمام وجهه، سألته ساخرا:

- أين شمعتك؟

قال:

- الله يعرفني جيدا، فأنا ما أنفك أطلب مغفرته، دائم التردد عليه.

- ألا توجد كنيسة هنا؟

- بعيدة بعض الشيء، التمثال أفضل صدقني، اطلب المغفرة هنا.

يريدني هنا، لأمنحه مالا إضافيا، نظير الشمعة والمغفرة، يكبرني أندروا، بثلاثين عاما ربما أو أقل بقليل. أغمضت عيني، تذكرت أمي، الشمس راحلة، آخر غروب على الجزيرة أراه، سأعود للقاهرة، هناك، لا يكون الغروب جميلا، تحجبه المباني العالية، شعرت بانقباضة في قلبي، والهواء أطفأ الشمعة المشتعلة، حاولت إشعالها بلا جدوى، وظلال الأشجار تحولت لأشباح تتحرك على الأرض، شعرت بحنين جارف لسعاد، وفارقتني بعدها انقباضة قلبي، قال أندروا:

- هل سنمضي اليوم كاملا هنا، لطلب الغفران؟

- لماذا هذا التمثال، لطلب الغفران فقط والسماح؟

- صُنع لأجل هذا.

- لنرحل.

الظلام يفرض سطوته على الجزيرة، البيوت الخشبية، الصامدة في وجه الزمن، تغرق في صمت مخيف، نمشي، وسط طرق متعرجة، البيوت متناثرة، كما رآها مدحت، وسط الحقول الشاسعة، ورأيت من بعيد، منزل عازف الكمان، منزل أندرو الكبير، يعلو عن جميع البيوت في هذه الناحية، هناك، وقف مدحت قرب أندرو والزائر الغريب، يراقبون أجواء الميلاد، والثلوج، ترسم الطرق، شعرت بالخوف، لا يموت الإنسان، والشر دائم الانتصار، والتاريخ الحقيقي موجود في حقيبة داخل الكوخ، مغلف بغلاف الأسطورة، كتبه شيخ مسالم، في غرفته، ليبدد وقت الشيخوخة البطيء، عدلت عن فكرة زيارة قبره،

زيارة هيكل عظمي، روحه تسير بجانبي، هو يسير بجانبي، وأنا كنت من في السابق؟ وحياتي القادمة، على جزيرة هادئة أو مدينة صاخبة أخرى، قريبا، ستنتهي الحياة الهادئة، ويتحول العالم لمدن متقاربة، شديدة الصخب. صعدنا لهضبة عالية، ينهج أندرو بشدة، على كل هضبة، مجموعة من المقاعد، تركها الناس للصاعدين، للحالمين، للراغبين في لحظات من التأمل، سألت أندروا:

- رجل مثلك يحب حياة المدن، كيف تعيش هنا؟

أخرج أندرو زجاجة بيرة من الكيس البلاستيك، أشعل سيجارة وقال:

- عشت في باريس فترة، الحياة سريعة للغاية، خفت مرات ومرات، شعرت بوحدة قاتلة، قررت العودة، الزمن في المدينة يمضي أسرع، تمر الأيام بسرعة جنونية وأنت تقاتل لأجل وظيفة أو امرأة.

قلت مبتسما:

- أنت فيلسوف!

- لا، لكني أحب دور الأحمق لأحيا، هنا أنا في أمان، أعمل وأعيش بتكاليف قليلة، لا أحتاج للملابس الفاخرة أو سيارة، وأنت؟

- أنا ماذا؟

- ما رأيك في الحياة الهادئة؟

- لا أحتملها، يمر الزمن ببطء وأنا أريده أن يسرع، المدينة تبتلع نصف مشاكلي على الأقل، مشغول بالمعارك اليومية.

صمتنا، الهواء يلفح وجهي، يشرب أندرو البيرة تلو الأخرى، يجلس في أمان، يراقب المدينة من بعيد، شعور غريب، الجلوس بجانب ملاك سابق، لا يدري كنهه، عليّ التعامل مع فكرة أنني سأظل حيا، للأبد.

طائرتي تقلع الرابعة فجرا، ودعت أندرو على باب الكوخ، منحته تقريبا، كل ما أملك، عدا مال التاكسي للمطار، أكد أن ثلاثة أيام فكرة خائبة، هززت رأسي موافقا واحتضنته، أوضب حقيبتي الصغيرة، قرأت أول ورقة من أوراق أندروا.

«الشر ينتصر في أغلب المعارك، والخير بعد انتصاره بقليل، يتحول لشر، كأن الإنسان خلق للشر، والخير عكس طبيعته». وضعت كومة الأوراق داخل الحقيبة وخرجت من الكوخ.

سأشتاق لصوت البحر ولموسيقى عازف الكمان، وددت لو سجلتها، لتبقى معي، رغبت بالبقاء، ورغبت في محو الفترة الماضية من حياتي، ما أعرفه أكثر مما أردت وأكثر رعبا.

أستقل العبارة، القمر يرسل أشعته، على المياه الغاضبة، آلاف الناس غرقوا هنا، وفي لحظاتهم الأخيرة، قبل غوصهم في الأعماق، ظنوا أنها النهاية.

17

فى مطار القاهرة، استقبلتني سارة بحضن طويل، افتقدتها. تحدثنا كثيرا في التاكسي، كذبت بشأن باريس، ورحت أسرد من خيالي ومن صور الإنترنت ما رأيته، عن شوارع باريس والكنائس القديمة والحانات، توقفنا في إشارة مرور روكسي، العودة للازدحام الخانق، للبيوت القبيحة، التي مازالت تتعافى من أمطار جاءت في أوائل سبتمبر، لثلاثة أيام، القاهرة على حالتها، مهما أصابها. جلسنا على مقهى سويا، لساعة، مازلت أكذب بشأن باريس، حتى أرهقني الكذب، ذهبت هي للجامعة وأنا عدت للمنزل، شرفة سعاد مغلقة على غير العادة، سأعود إليها بعد قليل، سأحكي وهي تنظر في عيني، لأذكرها بمدحت، ربما كنت مدحت في الحياة السابقة، استلقيت على السرير، بعدما وضعت الأوراق على طاولة الصالة، فكرت في إخبار سعاد بالحقيقة، ستظنني مجنونا، معتقدة بوجود لعنة داخل هذه الشقة وتطالب بإحراقها، سر لا أحتمل حمله لوحدي، لكنه سيبدو جنونا للجميع، وأوراق أندرو ومذكرات مدحت، ماذا أفعل بهما غير قراءتهما، أقول إنني عثرت عليهما، في المنزل، وأنشرهما باسم مستعار، ليقرأ الناس تاريخهم الحقيقي، الشر المتواصل والخير المنهزم.

في الثانية ظهرا، مررت على سعاد، مازالت الشرفة مغلقة، شعرت بالقلق، ذهبت للباب، دقات متتالية، فتحت الباب امرأة ثلاثينية، ترتدي حجابا أسود، قلت:

- مساء الخير، أين السيدة سعاد؟

قالت:

- لقد توفيت مساء أمس.

صُعقت، بهت لوني كالعادة، لا أحتاج لمرآة لرؤية وجهي، ربما ماتت لحظة انقباضة قلبي، لحظة مرور الهواء، ليطفئ شمعتي، وقفت أمام المرأة، رأيت صبرها ينفد، قلت:

- أين مكان المقابر، مقبرتها؟

وصفت المرأة أين يمكنني إيجاد المقبرة، مقابر السيدة عائشة، ليست بعيدة عن هنا، اشتريت ورودا واستقللت «تاكسي»، عند وصولي للمقابر، بدوت تائها، لمحت رجل الشطرنج، من كان يشاطرها الليالي، اتجهت إليه، اصطحبني معه، وصلنا للمقبرة، دفعت باب المقبرة الصدئ، شاهد قبر، يرقد أسفله جسدها، وقفت بجانب الرجل العجوز، يتكئ على عصاه، انهمرت دموعه بغزارة، قال:

- لقد جئت بالأمس معهم، دفنوها ليلا، وحفظت الطريق جيدا.

ثم وجه حديثه للقبر:

- سآتي كل يوم لأجلك.

ستمضي أيامه الباقية، على الماضي، سيتذكر، حتى ما ظن أنه تلاشى من ذاكرته، سيصبح فريسة للنسيان، وانتظار الموت، مضت أيام الشطرنج، والشرفة وتبادل الحكايات، تساءلت كيف يمكن أن يحتمل الإنسان، الحياة مرارا وتكرارا، كيف يتحمل مئات النهايات.

وضع الورود على شاهد القبر، فعلت مثله، ورحلنا، خلال الطريق، بخطواتنا البطيئة، ظل الرجل يحكي عنها، وكثيرا ما سمح لها بالفوز في لعبة الشطرنج، لتبتسم، طرق ترابية طويلة قطعناها، خرجنا على الطريق، التفت الرجل للخلف وقال:

- أخشى نسيان الطريق.

قلت:

- سأصطحبك، لقد حفظت الطريق.

- أشكرك، أنت قريبها، أخبرتني عنك.

- نعم، من جهة الأب.

ركب الرجل التاكسي، وتمشيت لساعات طويلة في الشوارع، أحزنني رحيل سعاد، تُولد الآن في مكان ما، ربما تجد العزاء في الحياة القادمة، أفكر في مصير أمي، فكرة غريبة، معرفة أن والدتك ستعود طفلة، تخطو خطواتها الأولى، وأنت تفتقدها، تتذكرها، هذا مخيف للغاية، لا توجد إلا نهاية واحدة، بعد زوال العالم، قررت العودة للبيت وقراءة أوراق مدحت الأخيرة.

* * *

الفصل الرابع عشر

قلت للزائر الغريب:

- أتعرف فرويد؟

- نعم أعرفه طبعا، أنا مطلع على كل ما يخص البشر.

- قال في مرة إن الحضارة بدأت عندما ألقى إنسان كلمة بدلا من حجر، أو جملة شبيهة.

- نعم إحدى جمله المشهورة.

- أنا أعتقد، أن الكلمة الأولى، كانت سبابا، ربما الكلمة الأولى لم تكن جيدة، لهذا حضارة الإنسان قائمة على المأساويات والحروب.

ضحك الزائر الغريب، ربما لتفاهة أفكاري ثم قال:

- ربما بدأت الحضارة عندما ألقى إنسان خنجرا تجاه جسد صديقه، ليظفر بزوجته.

ضحكنا معا، لم يعد فمه يسبب الإزعاج، ثم توقف عن الضحك فجأة وقال:

- مستعد لرؤية النهاية.

قلت بلامبالاة:

- نعم.

خلال أزمنة طويلة لا يستطيع تخيلها إنسان، خلق الرب عوالم متتالية، ودائما النهاية واحدة، ينهي الرب كل شيء، يوجه أتباعه من الملائكة لحصد أرواح الجميع وتنتهي في ثوان معدودة كل ما عمل لأجله الإنسان، تحرق الحقول والمدن والمنازل، التي تحمل أكثر من مجرد حجارة تنهار على أصحابها، وتتحول المعابد والتماثيل إلى أكوام من الحطام، تتحول الأرض إلى خراب يتبعه صمت قاتل، ثقيل جدا، لا رياح تدوي في الأرجاء أو رجل يبكي عجزه في ظهيرة يوم ما، وتظل الأرض فترة تحت وطأة الصمت، يغير أثناءها الرب حيوات الأشخاص، يبدل أدوار البشر، كل إنسان عاش على الأرض سابقا، يحصل على حيوات جديدة، مختلفة عن سابقتها. ثم يأمر الرب أتباعه بالعودة إلى الأرض لمحو آثار ذلك العالم المنتهي، تزدهر الغابات وتجري الأنهار ويعود ضوء القمر في الأفق يبدد على استحياء ظلام الأرض.كنا نمشي بتمهل، وسط جثث الملايين المنتشرة في أرجاء الأرض، من عاشوا لحظات الرعب الأخيرة وماتوا في العراء، يسير بخفته المعهودة التي خلقه بها الرب وأنا اكتسبت خفته، كأننا نطير نتنقل من مكان لآخر، يجرف الملائكة جثث البشر لتنزلق في هوة سحيقة استعدادا لإعادة خلقها. أحسست بالرثاء نحو آلاف السنين التي ذهبت كأنها لم تحدث، بلا ذاكرة تسجل أفعالهم وخطواتهم.

قال الزائر الغريب:

- يحتاج ما رأيته لمئات السنوات، لكنه مر عليك في دقائق!

- هذا العالم السابق؟

- نعم.

- كل شيء يذهب هباء بهذه البساطة؟

- نعم، حكمة الرب.

قلت ممتعضا:

- لا أرى الحكمة من الأمر.

- سأخبرك شيئا، تحدث النهاية عندما يتحول القتل والظلم إلى هوايات لدى البشر. في كل عالم، خلقه الرب، النتيجة واحدة.

- البشر يفعلون أمورا جيدة.

- أوافقك القول، لكن أنت نفسك، قد تكون، في حياة قادمة، إنسانا شريرا، بالغ الشر، يتلذذ بأذية أبناء جلدته، كما كنت أحيانا في حيوات ماضية.

- يخلقنا الرب أخيارا إذا؟

- يخلقكم الرب أخيارا، تختارون ما يناسبكم. وعالم قائم على الشر فقط أو الخير فقط، في دروب المستحيل.

***

الفصل الخامس عشر

انتهيت من لوحة الجندي. وحتى لا أنسى، شرعت في كتابة هذه المذكرات، شاهدا على ما حدث، وكما قلت في البداية، لا أدري، مصير الأوراق. مازال الزائر الغريب خارج غرفتي، يتجول بخفة، يدور حول نفسه بلا ملل.

فكرت في رسم لوحة نهاية العالم، جثث منتشرة، أبنية تسقط في لمح البصر، خواء وصمت. لكن موهبتي البسيطة لن تسعفني أبدا.

الفصل الأخير

سأعود في حياة جديدة، بعدما أضع فوهة المسدس في فمي وأضغط الزناد، فكرت في كتابة خطاب أخير لسعاد، لكنني سيئ في اختيار الكلمات المناسبة، وسيئ أيضا في لحظات الوداع، الحوائط التي أعيش بداخلها كابوس يجثم على صدري، تعودت الوحدة، منذ طفولتي، بلا أصدقاء، قصة حب واحدة، لن تكتمل، حب للكتابة، لكنني لا أعرف ماذا أكتب. والرسم، هوايتي المفضلة، تركت خلفي عدة لوحات رديئة، تثبت، أنني لن أكون فنانا حقيقيا في أي يوم، مجرد هاوٍ، يملك ثمن اللوحات والألوان، أتمنى أن تفهم سعاد دوافعي، أن تستخلص من أحاديثنا الماضية، مأساتي، وجودها شجعني على الحياة، لكنه غير كافٍ للبقاء، أراهن على سعادتها بعد رحيلي، ستمضي أيام قبل أن تستوعب عائلتي موتي، وستمضي بهم الحياة مع ذلك، أنا كنت غير موجود على الدوام، أتمنى أن تجد هذه الأوراق

طريقها لأحد الأشخاص. ما حدث حقيقي، الحياة كابوس متواصل، بلا فترات راحة، سنختبر كل شيء، سنختبر على امتداد حيواتنا، كل أنواع الألم والشقاء، السعادة، الموت بهدوء وسط الأصدقاء، الموت وحيدا بعيدا عن الوطن، العزلة، والرفقة الزائدة عن احتياجاتنا، سنختبر المجد، ونقاسي الفشل، سنعيش حاكمين ومحكومين، نجرب لذة السلطة وذل العبودية، في حياة ما، سيبتلعك وحش كاسر، يمضغك كقطعة لحم صغيرة.

تركع أمام أجساد شديدة الجمال، تتزوج جميلة الجميلات، في حياة أخرى، تتحول لامرأة تفتح قدميها لكل رجل عابر، قد يصيبك مرض لا شفاء منه وتبقى شهورا على سرير صغير، مهمل في ركن خافت، تنتظر معجزة لشفائك، تعيد القوة لجسد منهك، والنضرة لوجهك النحيف، ستصبح رساما وكاتبا وفيلسوفا، قاطع طريق وقاتلا ومطاردا من الجميع، ستجوب الأرض مرارا، وفي كل حياة تختبر مكانا جديدا، تراقب شروق الشمس رفقة شخص تحبه، وتراقبه من خلف قضبان سجن صغير، تعبد كل الآلهة وتمارس الطقوس لكل الأديان، تسجد لتماثيل الآلهة في اليونان القديمة ويصيبك الرعب عند سماع صافرة القطار للمرة الأولى، تقدم حياتك قربانا لحاكم يخوض الحروب لمجده الشخصي، وتكون امرأة ضحت بكل شيء لأجل رجل، يتركها لاتباع نزواته.

ستموت طفلا وشابا وكهلا، وفي حياة، ستكون امرأة هزمتها

السنوات، تجلس في شرفة منزلها، تتذكر الأيام الخوالي، جمالها ومعارفها الموتى، تصنع فستانا، بصبر الأيام الأخيرة. ستعيش في قصور، وبيوت يخجل الحيوان أن يعيش بداخلها، ستصبح حيوانا لا حول له ولا قوة، قد تكون طعاما لأسرة، أو يصطادك رجل يقيس رجولته بمهارته في قتلك.

وفي كل حياة تمر عليك لحظة عابرة، لذكرى مكان زرته، لامرأة أحببتها، لرجل منحته عمرا كاملا، لبكاء يفضي للموت، تؤرقك اللحظة العابرة دون دراية، أنك عشتها في حياة ماضية، تمر اللحظة سريعا وتشعر بحنين لذكرى لا تعرفها.

وفي كل حياة تملك فكرتك الخاصة عن الموت، الجنة والجحيم، العيش قرب الإله، البعث في جسد جديد، وأحيانا يكون يقينك ناقصا، تنتابك الشكوك، ستكون ثائرا وخاضعا، ستكون كل شيء تشمئز منه، وكل شيء تتمناه.

إذًا، هذا وداع صغير للعالم، وداع لدقيقة أو أقل، أتمنى أن تتحسن أموري في الحياة القادمة، سأرحل عن هذه الحوائط أخيرا.

مدحت أمجد

15 فبراير 1981

* * *

18

انتهت المذكرات، سيرة رجل وحيد. انتهت حياتي الماضية معها، لا أعرف في أي طريق أمشي الآن، كيف سيصبح شكل حياتي، وأنا أملك يقينا، عن الله والعالم والحياة، وعن حرية الاختيار. أضع أوراق مدحت، بجانب أوراق أندروا، أريد البدء في أوراق أندروا، لكنني أخشى ما بداخلها، لقد سجل تاريخنا هنا، دون تزييف، حقائق عن الحياة، ربما الأمر برمته خدعة متقنة من مدحت، لكن أندرو الصغير على الجزيرة، والأمطار بعد بكاء سعاد، ظننت في البدء أن الأمر رائع، لكنه كابوس.

قررت النزول لمقابلة سارة، أخبرتها باستعدادي لخوض أي شيء معها، عدا الإقلاع عن التدخين. لن أخسر شيئا.

19

بعد نهاية أوراق مدحت، كنت أستيقظ على كوابيس، تشبه الأشخاص في أوراقه، رأيت الجندي يموت بالرصاصة قبل الأخيرة في الحرب، في برلين، الرصاصة الأخيرة استقرت في رأس الألماني، الذي قتله دفاعا عن وطن تحول لخراب وديكتاتور تفحمت جثته. وآهات اللذة، للعاهرة الجميلة، كما وصفها أهل المدينة، أيقظتني مرارا من النوم، كما أيقظت في نفوس الرجال حب الخطيئة، ورأيتها في صباح باكر، تنثر الورود حول مقبرة زوجها، وعندما لفظت أنفاسها الأخيرة، معلقة من رقبتها، عارية، تتأرجح بسبب الهواء، وكان وجهها ناعسا كأنها في غفوة طويلة، يمر أمامها الرجال والنساء، عيونهم منكسرة، لذنب اقترفوه، وعلى الشجر المغروس، في شوارع المدينة الصغيرة، تحت ستار الليل، تسلل الكثيرون، وعلقوا مشانقهم بأنفسهم، تحت وطأة الذنب، ولم تعد المدينة مدينة الرب، بل مدينة الموتى. ورأيت السمكة، مقطعة أجزاء، على مائدة الأسرة الصغيرة، يتلذذ بطعمها رب الأسرة. وأرى أحيانا، أشباحا يتجولون في المنزل، بلافتات بيضاء، أسمع همهماتهم، التي أرقت

على مدى أسابيع، الديكتاتور. والرجل المسجون، داخل قفص يشبه قفص الحيوانات، علقوا جثته، ليتصوروا بجانبها، للذكرى. كل يوم أستيقظ من النوم على رؤيا مثل هذه، وفي ليلة، استيقظت فزعا على صوت دندنات قادمة من الصالة، ذهبت لأرى، وجدت رجلا غريبا، يصنع لحنا بأصابعه على الطاولة ويصدر دندنات بفمه، احتجت ثواني لأفهم، تسارعت دقات قلبي، فتح فمه، الخالي من الأسنان، وقال:

- أهلا بعودتك يا مدحت، عدت لنفس الشقة، أنت روح سيئة الحظ.

جلست على الأرض رعبا، تهاويت، قال:

- أنت الآن إبراهيم، تفهم كيف تسير الحياة، بسبب مذكراتك في الحياة الماضية، لديك أوراق أندرو أيضا، لديك كل شيء عن الحياة.

أردت الحديث، لا تخرج الكلمات، والهاتف داخل الغرفة يرن، توقعت أنها سارة، تتصل لتشتكي أهلها، وقف، ودار حولي، بحركته الخفيفة، وقال:

- أتريد الذهاب في رحلة أغرب مما قرأت؟

(تمت)

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

حياة رجل ميت

"أغمضت عيني وعندما فتحتهما، بعد ثانية واحدة، كنت في غرفة تحتل الكتب جميع أركانها، كأن وجود الإنسان هو الأمر الشاذ والخطأ، وأن الغرفة عالم صغير تسكنه الكتب فقط، أقف بجانب باب الغرفة المغلق، وبجانبي الزائر الغريب، وشخص آخر يقف أمام النافذة، يعطينا ظهره، تحدث الرجل دون النظر إلينا، كأنه يعرف بوجودنا مسبقا".

***

في هذه الرواية تجد حَيَوات كثيرة، ترغب في عيش بعضها، وبعضها تكره أن تعيشه، وبعضها تتمنى ألا تلقى صاحبها، ولو صدفة. ماذا لو كنت في حياة سابقة ما تكرهه اليوم، وتخاف منه غدا؟ وهل ستكون في حياة جديدة حيوانا، كل هدفه في الحياة ألا يكون طعاما أنت تأكله الآن؟

"حياة رجل ميت"، بناء متماسك، ولغة سلسة قوية، رواية تخبرنا بميلاد أديب جديد.

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

الدار المصرية اللبنانية

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

9 789777 951661